طبيّات إسلامية

# طبيّات إسلامية

تأليف

الدكتور

حسان حتحوت

عالم الكتب

١٩٨٨

طبيّات إسلامية
المؤلف : الدكتور حسان حتحوت
الطبعة الأولى ١٩٨٨م
عالم الكتب - ٣٨ عبد الخالق ثروت - القاهرة
ص . ب . : ٦٦ محمد فريد - ت : ٣٩٢٦٤٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزى القارىء :

سلام الله عليك ورحمات الله وبركاته ... وبعد :

فقد بدأت قطاعات كبيرة من الناس فى الشرق والغرب - مسلمين وغير مسلمين - تستبين أن « الإسلام » أوسع مدى مما يدركه الفهم التقليدى لمفهوم كلمة « دين » . وخلافاً لما استقر عليه العرف الغربى فإن دين الإسلام لا يهتم بشئون الغيب والآخرة فحسب ، بل يتصدى للهيمنة على شئون الدنيا التى يعيشها الناس أفراداً أو مجتمعات ، لا داخل المعابد أو فى خلوة ما بين المرء وربه فقط بل فى نواحى الحياة جميعاً حتى لنستطيع أن نقول إنه ما من نشاط إنسانى إلا وله فى الإسلام ضوابط قانونية وإلا فتوجيهات أخلاقية تجعل ضمير الإنسان رقيباً عليه وإن استتر عن القانون .

ويؤمن المسلمون أن الإسلام من الله وحق الله على المؤمنين به السمع والطاعة ... وهم يؤمنون أن أوامره ونواهيه كفيلة

بصالح الإنسان - كل الإنسان - صارفة له عما يرديه ويؤذيه ، فمن واجبهم نحو إخوتهم فى الإنسانية أن يدلوهم إلى سبيل الخير ليسلكوها ويحذروهم من سبيل الغى ليجتنبوها .

والطب والطبابة من الأنشطة الهامة ، وما أنجزه التقدم العلمى فى المجال الطبى فى الأونة الأخيرة يكاد يقارب الخيال ، ونخشى أن يفتن البريق العلمى الأطباء فيدخلوا إلى حيز التطبيق بكل ما استطاعت التقنية أن تجعله ممكناً ، دون نظر إلى العواقب ودون احتكام إلى الفطرة السليمة والبصر بالآثار القريبة والبعيدة.

من وحى هذه المعانى كتبت هذه الأطروحات كان لكلٍ ظرفها وزمانها.. ونرى أن الحاجة إليها أوسع وأعم فرأينا أن نودعها كتاباً يصدر فى مصر ومن مصر . أهديه أبنائى وإخوتى المسلمين وأهديه زملاء المهنة حراس الإنسانية تبصرة وذكرى والسلام على من اتبع الهدى .

حسان حتحوت

# المحتويات


- الطب بين الإيمان والإلحاد .
- المفهوم الإسلامى للإنجاب .
- الإجهاض فى الدين والطب والقانون .
- تقدم المرأة فى السن من منظور إسلامى .
- الإطلاع على عورة الجنس الآخر فى الطبابة .

وما الطب إلا حنوّ السماء على الأرض بالبر والمرحماتِ
وكف سعت بين رب العباد وبين العباد بفيض الحياة
براءة أيوب من ضره وغاية عيسى من المعجزات
بناء البنوة حتى تشب وراعى الأمومة والأمهات
سياج الشعوب من التهلكات وعون الشعوب على المهلكات
وكم طمأن الأنفس الهالعات وكم كفكف الأعين الدامعات

تباركت ربىَ فيما بدعت وفيما صنعت من المعجزات
ببرك أنت وصلت الحياة فكان الأطباء تلك الصلاة

من ديوان " جراح وأفراح " للمؤلف

# الطب بين الإيمان والإلحاد

الطب بين الإيمان والإلحاد ؟

وهل فى الطب إلا برء أرواح وأجسادِ
وكفكفة الدموع وريّ حلق اللاهب الصادى
وصحوة كل نوام ونومة كل سهّاد
وعافيـة ممهـدة لـرواد وقصـاد
فكيف تجوز نسبته لإيمان وإلحاد ؟

بهذا التساؤل نود أن نخرج مؤقتاً من عالم الطب إلى عالم التاريخ ، فتكون لنا سياحة عبر القرون ونافذة نطالع منها مجريات الأمور حتى ولو كانت خفية الصلة بالموضوع الذى نتصدى لبحثه . وإذا كانت ساعة الصفر التى ينتسب إليها التاريخ فى جُل أنحاء عالمنا المعاصر هى ميلاد المسيح عليه السلام فمن هناك فلنبدأ . لنرى أن المسيحية من بعد المسيح ظلت

زماناً موضع المصادرة والاضطهاد فى الامبراطورية الرومانية . وكان معتنقوها يتوارون خشية أن يُكتَشَفُوا فيحكم عليهم بالموت بتقديمهم لمصارعة الأسود الجائعة فى حلبات التسلية والترفيه فى روما . وما كان لهم أن يعيشوا عقيدتهم إلا حركة سرية تحت الأرض ، تتعبد فى مغارات مستورة ، وتتخاطب بإشارات كالشفرة مكتوبة بحيث يفهمونها هم ، وكانت المسيحية تهمة خطيرة فلم يكن للمسيحى إلا الإسرار والكتمان .

حتى حدث حادث فريد من أحداث التاريخ وفى التاريخ ضربات حظ لها ما وراءها . كان على حكم روما مجلس سُباعى توفى عضو منه وكان المرشح لتولى مكانه ابناً له كان آنذاك على رأس جيش رومانى فى غزوة بشمال أوربا . ويسمع الابن أن أعضاء المجلس قرروا أن يتجاوزوه فينثنى بجيشه متجهاً إلى روما ليحفظ حقه بقوة السلاح وكم من حقوق تضيع إن لم تدرع بقوة السلاح ، ويشاء القدر أن تبصر عيناه على جانب الطريق إحدى تلك الرقاع منقوشاً عليها من تلك الطلاسم المسيحية ومكتوباً تحتها « تحت هذا الشعار تنتصر » .. ويتفاءل القائد فيأخذ على نفسه عهداً بأنه إن انتصر فسيكون نصيراً وظهيراً

لأتباع هذا الدين المضطهد ، وبالفعل ينتصر، ولم يكن هذا القائد إلا قسطنطين ، الذى أصبح من بعد أول امبراطور مسيحى ونقل عاصمة الدولة إلى بيزنطة وسماها القسطنطينية . وتغير الجو فجأة.. وصارت المسيحية دين الامبراطورية .. وأصبح المستخفون المضطهدون هم أصحاب السلطة والسيادة ، والقوة كالخمر قد تميل برأس صاحبها ، وعلا سلطان الكنيسة وغلا فى العلو ، وفى خِضَمِّ صراع السلطة والنهم إلى القوة استطاعت الكنيسة أن تلغى أو تنفى حتى الجماعات المسيحية التى لم تشاركها فى الأخذ بعقيدة التثليث ، وبصلاتها ومصالحها السياسية المشتركة مع الامبراطور ، فرضت عقيدة التثليث فرضاً فى مجمع نيقية عام ٣٢٥ ميلادية ... وضرب سلطان الكنيسة رواقه وأحكم قبضته على كافة شئون الناس ، فإذا الكنيسة تملك أن تحرم من الجنة وتملك أن تعطى صكوك الغفران ومساكن الجنة ، فضلا عن أنشطة هذه الحياة الدنيا فقد استحوذت عليها وقبضت على خناقها . فهى تقرر للناس ما يقرأون وما يتعلمون وما يفكرون . وهى تصادر بتهمة الهرطقة كل تراث اليونان وتحرق ما تصل إليه منه إلا الخبىء ، وهى تصادر الحركة العلمية بدعوى أنها منافية

للإيمان ، ويحكى التاريخ عن علماء أعدموا حرقاً بالنار بسبب آرائهم العلمية ، ومن منا لم يسمع عن المهزلة التى اسمها محاكمة جاليليو العالم الفذ .. وإليكم قصة تاريخية جديرة بمسامعنا نحن المسلمين . كان من أكابر الأطباء فى الدولة الرومانية فى القرن الأول للميلاد جالينوس المشهور ، الذى يذكره المتنبى بقوله :

نحن بنو الموتى فما بالنا نعاف ما لا بد من شربه

حتى يقول :

يموت راعى الضأن فى سربه ميتة جالينوس فى طبه

أدرك جالينوس المسيح ولكنه لم يتنصر . وكان من تعاليمه أن الجسم وعاء الروح فإذا مات الإنسان بلى الجسم وبقيت الروح. ولما كان هذا الرأى مطابقاً لرأى الدين فقد فرضت الكنيسة حمايتها على كل ما كتب جالينوس فلم يجرؤ أحد على الاختلاف معه قرابة ألف عام . وكان مما كتبه جالينوس أن الدم يمر من الجانب الأيمن إلى الجانب الأيسر من القلب خلال ثقوب خفية فى الجدار الفاصل بينهما ، حتى دار الزمن فخالفه لأول مرة طبيب مسلم هو ابن النفيس ، إذ كان أول من توصل إلى الدورة الدموية

الصغرى وهى دفع الدم من البطين الأيمن إلى الرئتين ثم عودته سائغاً منهماً إلى الجانب الأيسر من القلب .. وورد ذلك مكتوباً ومرسوماً فى كتابه شرح القانون الذى يعلق فيه على كتاب القانون لابن سينا . وخلال مغرب الحضارة الإسلامية عفا النسيان على هذا الكشف ، وفى أثناء حركة الترجمة العكسية من العربية للاتينية وليس كسابق العهد ، انتحل كشف ابن النفيس عالم أوربى اسمه سرڤيتوس بعد قرنين من الزمان ، فإذا به يلقى المرتع الوخيم إذ تحاكمه الكنيسة بتهمة الهرطقة لاختلافه مع تعاليم جالينوس ، وينفذ فيه حكم الإعدام حرقاً مع كتابه فى مدينة فينا عام ١٥١٢ . وتطمس أنباء الكشف حتى يعود به الطبيب البريطانى وليام هارفى فى القرن الثامن عشر ، ولا يزال مكرماً من أجله إلى اليوم بوصفه المكتشف الأول ، لأن نبأ ابن النفيس ظل مطموراً حتى اكتشفه الطبيب المصرى سعد الدين التطاوى عام ١٩٢٣ أثناء تنقيبه فى متحف برلين .

تلك لمحة عن حال أوربا إبان ما يسميه الأوربيون أنفسهم العصور الوسطى .. ولعل الطب بالذات كان أكثر نصيباً من اضطهاد الكنيسة عن سائر العلوم . لقد كانت معجزة المسيح

شفاء المرضى وإحياء الموتى فاعتبرت الطب نشاطاً دينياً محضاً هو بالكامل فى حوزة الكنيسة ، وحرمت التداوى عند الأطباء ، وطاردتهم ولاحقتهم ، ودار التداوى على الرقى والتعاويذ وتراب أضرحة القديسين والنذور والتمائم ، وكأنها ردة إلى عصور سابقة موغلة فى القدم نشط فيها السحرة والمشعوذون والأفاقون .

حتى صك مسامع التاريخ صوت جديد وشق ظلماءه نور فريد . ولد فى جزيرة العرب دين أرسله الله للناس أجمعين .. فى كتاب أول ما نزل منه : اقرأ . وبأسلوب يتحدى عقل الإنسان أن يستجلى سنة اللّه فى خلقه وهو ما نعبر عنه اليوم بالبحث العلمى ، حتى يبصر فى الصنعة دليلا على الصانع . ويوصى نبيه وأسوة خلقه { وقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْماً } .. ويعلِم المبعوث بهذا الدين أن طلب العلم فريضة ، وأن مداد العلماء كدماء الشهداء ، وأن العلم يُطلَب ولو بالصين وفى هذا دليل على أنه لا يعنى العلم الشرعى فقط بل الكونى كذلك ، فلم يكن بالصين علم شرعى تشد له الركاب . واقترع الإسلام وأوربا فما كان من ذاك مفر .. وفغرت أوربا فاها دهشة فى الحرب حين كان القائد من هؤلاء المتوحشين القادمين من الصحراء يملى شروط الصلح بعد انتصاره

فى معركة فيكون من بينها أن يخلى بينه وبين مخطوطات التراث الإغريقى القديم ، وفغرت أوربا فاهاً دهشة فى السلم وهى ترى المسلمين وقد أقاموا على الإسلام أمة فدولة فامبراطورية فحضارة تتبنى العلم والعلماء من كل ملة وجنس ولون ودين .. وتعلمت أوربا بالقدوة والمثل ألا وصاية لبشر على بشر ، وألا حجر على عقل الفكر الإنسانى ، وألا قيد على البحث العلمى ، وألا وساطة بين العبد والرب ، وأن الكنيسة دكتاتورية ظلماء .. ودارت عجلة الزمان التى لابد أن تدور ، وثارت أوربا وكان لابد أن تثور . وكانت الثورة للأسف الشديد رد فعل أكثر مما كانت فعلا .. وكانت ثأراً أكثر منها إصلاحاً . لم تكن أوربا تتوخى أن تنقى المسيحية مما شابها ولكنها اهتمت بالانتقام ممن احتكرها ، ولا هى تغيأت أن تفهم الإسلام بل ركزت أنظارها على الحرية الفكرية التى هيأ مثالها ومنوالها .. وانكسرت السدود وتحطمت القيود وتبادل العدوان المواقع ، وحكم المنتصر الجديد على الطاغية القديم بالنفى وراء أسوار لا يعدوها وعذره فى ذلك بيّن وحجته مقنعة .. واستطاعت أوربا بذلك أن تنفض عنها العصور المظلمة لتضع قدميها على عتبات عصر النهضة .. وعبت من علم

المسلمين عبا ، وتعلموا العربية ليدرسوا الطب والفلك والكيمياء والطبيعة والرياضة والفلسفة وغيرها ، واستوظفوا علماء المسلمين عمداء وأساتذة ، واعتمدت مكتباتهم على كتب المسلمين عربية أولا فلما آذن المسلمون بأفول ترجموها للغاتهم فلما اخترعت المطبعة كان حوالى تسعين بالمائة من إنتاجها تراجم من كتب المسلمين .

وفى غمرة تنحية الكنيسة نحت أوربا كل ما تمثله الكنيسة.. فكان أن نحت الدين ونحت الله ذاته عن حياتها ، وآن للعلم الحديث أن يولد ولكنه ولد للأسف على فراش الإلحاد . وإن الناظر المتأمل فى أحوال العالم الأول عالم العلم والتقدم فى زمننا هذا لمدرك أنه فى حوزة أحد إلحادين خفى أو جلى . أما الإلحاد الجلى فإنكار الله أصلا ورفض الدين والدعوى بأنه شيك بدون رصيد على مصرف وهمى اسمه الآخرة ادعاه رجال لإغراء الناس على اتباعهم . وغير خافٍ أن لهذا الإلحاد صولة وجولة ودعوة ودولة. وأما الإلحاد الخفى فالاعتراف المظهرى بوجود الله ولكن مع تحديد إقامته فى الكنيسة والحذر كل الحذر من تدخله فى شئون حياتهم الشخصية أو الاجتماعية أو الأخلاقية أو العسكرية

أو السياسية . وطوت الغرب تلك الدعوة التى تسمت فيما بين الحربين باسم " فضيلة بلا دين " بدعوى أن الدين يفرق بين الناس ويوقع بينهم الحروب والعداوت .. وتحمل الآن اسم " الإنسانية العلمانية " التى تقوم على أن قيم الإنسان يجب أن تكون من صنع الإنسان بغير حاجة أو إشارة إلى أية قوة غيبية .. وتدل النظرة الفاحصة إلى أن هذه الدعوة هى أقوى الدعوات السياسية الاجتماعية فى عالمنا المعاصر . وكانت النتيجة المنطقية أن العقل البشرى أصبح هو الحكم والفيصل فى شئون البشر لا الهدى الإلهى .. وباعترافه هو محدود ، ولو ادعى العقل تمام المعرفة لوجب أن تلغى ميزانيات البحث العلمى وتغلق مختبراته، فما ظمأ الإنسان للمزيد من المعرفة إلا اعترافٌ بمدى ما يجهله. وعقل الإنسان فوق ذلك متغير قابل للإيحاء كشيمة البشر مطواع كالحديد للطرق والحرارة .. فلما عرض الإنسان تراثه القيمى كله على العقل لم يكن من الغريب أن يطلع علينا بخريطة قيمية جديدة ذات تضاريس مغايرة تماماً لما استقرت عليه الإنسانية على يد العشرات بل المئات من الرسالات والرسل ... وأصبح حرام الأمس حلال اليوم ، والرذيلة فى السابق حسنة فى اللاحق ،

ومقدسات الماضى سخريات الحاضر .. وكما قال الكاتب الروسى القديم دستويفسكى فصدق : « إذا غاب الله فكل شىء جائز » ! ولكن ماذا عن الطب ؟ وهل ترانا شردنا عن الموضوع الذى اذعنا به وأولنا إليه ؟! أو ترنح الطب بين طرازين من القيم فأيهما استحوذ عليه ؟

ولنعرض لقيمة أصيلة راسخة على سبيل المثال وهى حياة الإنسان . هى بمقاييس الإيمان قيمة مقدسة على مدى تاريخ الإنسانية .. يقتل هابيل قابيل فيبوء بإثميهما معاً ويكتب بها الله على بنى إسرائيل ما نزل به القرآن للعالمين : { مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِى إِسْرَآئِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً } .. ويظل الطب منذ كان الطب على هذا الهدى حتى هذا الزمن الأخير . ولكن الزمن الأخير ينبذ قيماً إلى قيم .. فلا تعود لحياة الإنسان حرمتها السابقة ، ويدور الطب فى مدار القيم الإلحادية فإذا به لأول مرة فى التاريخ يخون أمانته على ثلاث جبهات . الأولى : مهاجمة حياة الإنسان فى دورها

الباكر وهو جنين . القيم الجديدة تقول إن من حرية المرأة ألا تحمل جنيناً لا ترغب فيه ، وتقول إن لها حرية الإباحة الجنسية كالرجل غير مهددة بحمل لا تريده ، وبدلا من أن تطالب الجنسين بالعفة سخت عليهما بمنع الحمل والإجهاض ، وتقول إن موارد الأرض غذاء وكساء لا تفى بحاجات البشر فلا بد من اختصار البشر .. وتنصاع القوانين فى بلاد العالم المتقدم فتبيح الإجهاض فيطيع الطب ويلبي. ويستشرى هذا الغزو الفكرى مضافاً إليه الطمع المادى فيسوغ للطب هذا المنحدر ، ثم لا يلبث أن يظهر فى بلدنا ومن أهل ملتنا مفتونون بهذا الذى يحدث هناك محجوبون عن قيمنا الربانية وشريعتنا الإسلامية التى أولت الجنين أيما اعتبار ، فالرجل يموت عن امرأة حامل فلا توزع تركته إلا إن حجز نصيب الجنين يمتلكه إن ولد حياً ، والجنين يسقط فتبدو عليه أمارات حياة فله أن يرث أياً من مورثيه مات منذ بداية الحمل فإذا مات الجنين ورثه ورثته الشرعيون ، والمرأة قد تجرم فيحكم عليها بالإعدام فإن اتضح أنها حامل أُجِلَ تنفيذ الحكم حتى تلد وترضع ولدها حتى لو كان حملها من سفاح ، مما يثبت أن الجنين النابت من سفاح له كذلك حق الحياة ، وفى الشريعة فوق ذلك عقوبة مالية

على التجهيض حتى ولو لم يكن القصد جنائياً ، وهى غرة الجنين يدفعها من تسبب فى الإجهاض لورثته وتبلغ كسراً من دية البالغ.. وإن من المخجل حقاً أن يجتاح عالمنا المعاصر وباء إجهاض على يد الطب والأطباء . وتميل المفاهيم الجديدة بالطب فإذا هو فوق الإجهاض يضع وسائل منع الحمل فى يد البنات القاصرات ويعترف لهن بحق جديد هو أن يتم ذلك من وراء ظهر الآباء والأمهات حتى لو كانت البنت قاصرا .

ثم نعرض للجبهة الثانية التى تتعرض لها الحياة كقيمة . تلك هى ما اصطلحوا على تسميته بالقتل بدافع الرحمة أو حق الإنسان فى الموت على يد طبيبه . فمن كانت به علة لا يرجى البرء منها وآده الألم كان الموت حقاً له واجباً على طبيبه . ولا نزعم أن هذه الدعوة فى فجرها فقد تجاوزت حد الإرهاصات.. بدأت مستخفية مستحيية كما بدأت قبلها دعوة الإجهاض ثم ما لبث مروجوها وفلاسفتها أن جمعوا لها الأنصار وزينوها لكثير من الناس فارتفع صوتها حتى إن مجلة الجمعية الطبية الهولندية فى عدد ٢٨ مايو عام ١٩٨٣ نشرت عنها ست مقالات من إحدى عشرة احتواها العدد ، تراوحت بين الدفاع والتبرير حتى اقترحت

عملياً الأدوية والعقاقير التى يحقن بها الطبيب مريضه ليسلمه لموت مريح . ولا زالت هذه الممارسة غير قانونية ولكن تعددت قضاياها فلوحظ أن الأحكام بالعقوبة آخذة فى الخفة، ويركز أنصارها على هولندا لتبنيها قانوناً وحان موعد عرضها على البرلمان لولا تململ حزب أقلية آثر معه رئيس الوزراء ألا يعرض الائتلاف الحاكم لهزة فرفع الموضوع من جدول الأعمال ولكن إلى حين ، وكما حدث فى تجربة الإجهاض فيكفى أن تقنن قتل المرحمة دولة واحدة حتى يشد الأنصار على غيرها من الدول . وواضح أن هذه الممارسة لا قيام لها إلا على مرتكزات إلحادية ، ولا يمكن أن تقبلها نفس تدرك أن بعد الحياة الدنيا حياة أخرى لها الدوام وفيها الحساب على ما ائتمننا الله عليه من جسم وعقل ومال . وأن الدنيا ما هى إلا مزرعة الأخرى ، وأن الصبر فى حياة الإنسان قيمة وفضيلة . وذكرت قول النبى صلى الله عليه وسلم « كان فيمن قبلكم رجل به قرح فأخذ سكيناً فحزّ يده فما رقأ الدم حتى مات . قال الله بادرنى عبدى بنفسه . حرمت عليه الجنة » .

أما ثالثة الهجمات على حياة الإنسان فيمثلها ما كتبه مسيو أتاى المفكر الفرنسى وأحد مستشارى رئيس الجمهورية فى

فصل عنوانه « الطب تحت الاتهام » من كتاب " مستقبل الحياة " الذى أصدره ميشيل سولومون فى باريس عام ١٩٨١ . ومفاده أن إطالة الحياة أصبحت أمراً غير مرغوب ولا مطلوب فى مجتمعنا الصناعى ، وأن الآلة البشرية إن استغرقت عمرها الإنتاجى فأصبحت صيانتها تزيد تكلفة عن إنتاجها فإن من الواجب التخلص منها .. إذ ليس من العدالة فى المجتمع الاشتراكى أن تحمل شريحة المنتجين عبء الشريحة غير المنتجة . إنه هنا لا يتحدث عن حق الموت بل يجاوزه إلى واجب الموت .. ويزينه بأنه موتٌ فى عزة وكرامة . وكيف لا وهو موت اكلينيكى طبى بلا عناء للفقيد ولا فجاءة للأهل ويمكن أن ترتب له المراسم والبرامج والأحفال وفق ما يشاء الورثة ويرغبون ؟ أو يدفعون ؟ .. ولنا أن نتخيل وجه الحياة وقد اختفى الشعار القائل " أعطى وأنا قادر فإن عجزت فأنا فى رعاية المجتمع " وحل محله الشعور المر " أعطى وأنا قادر فإن عجزت قتلنى المجتمع " . ونذكر قيماً أخرى إذ نسمع عمر بن الخطاب منكراً عندما لقى الشحاذ اليهودى " أناخذ منه الجزية قادراً ونضيعه عاجزاً ؟ رتبوا له ولأمثاله من بيت مال المسلمين " .. ويتكرس التراحم والتكافل وتواصل

الأجيال عندما يتنزل جبريل على محمد (ص) بقوله عز من قائل :

{ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلا إيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إحْسَاناً * إمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَّهُمَا أُفٍ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ من الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيراً } .

ثم نقلب صفحة أخرى لنطالع صورة أخرى كئيبة ومخيفة لما ولغ فيه الطب الذى عهده تاريخ الإنسان جندياً من جنود الحياة فأوشك أن يكون جندياً من جنود الموت . حتى عهد قريب كانت الأسرار العسكرية للدول الكبرى خبيئة فى مختبرات علماء الطبيعة وتصميمات مهندسى الميكانيكا.. حتى كشف لنا الأمس القريب عن الأهوال التى تسخر لها العلوم الحياتية والطبية ، ولم تعد سراً ترسانات القنابل الجرثومية وغازات الشلل وعقاقير العبث بإرادة الإنسان ومقومات شخصيته . عندما سقطت القنبلة الذرية الأولى على هيروشيما قال أوبنهيمر أبو القنبلة الذرية " اليوم وقع علماء علم الطبيعة فى الخطيئة " .. فيا ويحى على الطب وما تدخره له الأقدار .

ومعاذ الله أن نجحد أو نهون من شأن ما حققه العلم الطبى من منجزات تكاد تشبه المعجزات .. وإنما نشفق إذ نبصر تلك المنجزات الجليلة تنزل إلى ساحة التطبيق فتتنازعها القيم إيمانية أو إلحادية ، فإن غلبت الأخرى فقد أصبح العلم سلاحاً فى يد الشر لا فى يد الخير .. ولنضرب مثلا بالوثبة الكبيرة فى علم التكاثر التى أفضت إلى إنجاز ما يعرف بأطفال الأنابيب فحلت مشاكل للكثيرين وبدلتهم من بعد تعاسة رضى وسعادة . ولكن استمرار التقدم التقنى بمعزل عن الضوابط الإيمانية أفضى إلى الاستيلاد خارج وعائه الشرعى الوحيد تحت مظلة عقد زواج وعُقدة نكاح ، فإذا بالطب يقتحم نطاق الثنائية الزوجية الشرعية بالمنى الغريب والبويضة الغريبة والجنين الغريب والرحم الغريب .. واختلطت الأنساب على أوجه شتى ، فربما كان ابن الأسرة ليس ابن ربها أو ابن ربتها ، وتمزعت الأمومة عندما انشعبت صلة الرحم عن صلة المبيض ، وأحدثت الإنسانية شيئاً إداً وحدثاً جللا فلأول مرة فى تاريخ الإنسانية تقبل أنثى الإنسان غير مضطرة أن تحمل بجنين فى رحمها وَهْناً على وهن وتتفاعل معه جسدياً ونفسياً وهرمونياً وكيميائياً وغذائياً ومخاضاً وولادة ، وقد قررت من قبل

البدء أنها ستتنازل عنه .. والأفدح من ذلك أنها تفعله عادة لقاء قدر من المال . لأول مرة يسجل التاريخ اختزال الأمومة من قيمة إلى ثمن . ولو شاع ذلك وذاع فهى القاصمة الفاصمة بين جيل وجيل .. والحالقة لا تحلق الشعر ولكن تحلق الرباط بين الأمومة والبنوة .. ولست بناسٍ مرة دعتنى أسرة مسلمة محافظة لأرأب صدعاً بينها وبين ابنها المسلم الملتزم .. واستعنت عليه بالقرآن وإكرامه حق الوالدين .. فإذا بالابن يقول لست مديناً لهما يا دكتور .. لقد تزوجا على اتفاق أن ينجبا اثنين .. فأجهضا من جاء وراءهما ، ولولا أن الصدفة وحدها جعلتنى رقم اثنين لكان مصيرى أن يقتلانى كما فعلا بالأجنة الخمسة التى جاءت من بعدى . وكان هذا بعداً جديداً لمأساة الإجهاض يطالعنى لأول مرة. ونعود لتقنية أطفال الأنابيب فنقول إنها مشروعة بين زوجة وزوجها حال قيام الزوجية وبغير إقحام طرف غريب من منى أو بويضة أو جنين أو رحم . ولكن آفة العلم أنه يود أن يدخل كل ما يحققه إلى حوزة التطبيق .. متجاهلا السؤال عن حلال أو حرام ، مُنَصباً نفسه الحكم الأعلى وبالتالى سادراً وراء الدعوى بأن قيم الإنسان لا يضعها إلا الإنسان .. أى دعوى الإلحاد .

لعل قرننا الحاضر سيدخل ذمة التاريخ لا على أنه قرن انشطار الذرة أو صنع الحاسب الآلى بل على أنه قرن التحكم فى خصوبة الإنسان إحداثاً أو منعاً . ولقد بدأ مالثوس عام ١٧٩٨ صيحته بأن زيادة البشر تفوق زيادة الموارد فلا بد من اختصار تكاثر الطبقات الدنيا من البشرية .. وتلاه داروين فنادى بأن يكون التكاثر البشرى قصراً على الراقين والمتمدنين لكيلا يحمل الجنس البشرى عبء الفقراء والعجزة والأغبياء ، واستمر المنحى حتى القرن العشرين فحملت اللواء شخصيتان فريدتان هما الدكتورة مارى ستوبس فى بريطانيا ومارجريت سانجر فى أمريكا ، وأغدقت الأخيرة من مالها فأسست مركز مارجريت سانجر للأبحاث فكانت ثمرته ابتكار حبوب منع الحمل لأول مرة عام ١٩٦٠. وتهيأت الوسيلة لفصل الجماع عن الإنجاب .. ومنذ نادى فرويد بأن الجنس هو جذر السلوك الإنسانى وحذر من مخاطر الكبت وقر فى ذهن الناس أن الإباحة الجنسية شىء علمى وصحى ، ولم تقصر العلمانية وربائبها من هيئات منع الحمل وتحرر المرأة وبناء المجتمع الجديد وحرية الجنس والتعقيم بالجملة وإباحة الإجهاض فى ركوب الموجة لا لمجرد تحديد التكاثر فى

المجتمع ولكن لقلب القيم السائدة فى المجتمع رأساً على عقب وتقويض تراثه المستقر وتغيير أنماط الحياة ودستور السلوك . ولا نظلم الطب إن قلنا إنه ساهم فى كل ذلك إما بالريادة العلمية والتقنية ، وإما بالطاعة والإستجابة لمعطيات القيم الجديدة ، وإما - على أحسن الفروض - بالحياد إزاء الموجة العارمة التى لفت المجتمعات فكانت لها آثارها المدمرة لا على الأخلاق بل كذلك وبشكل فادح على صحة الناس الجسمية والنفسية . بقى الطب أسير تلك القاعدة التى تقول ليس للطبيب أن يعظ .. وتحرم عليه أن يحاول التأثير على مرضاه بالقيم التى يعتنقها هو . ولقد قرأت بعينى فى أمريكا مطبوعات توزعها السلطات الصحية على الشباب فتقول عن الجنس خارج الزواج : إنه ليس عيباً وليس عاراً ولكن ننصحك إن أحسست بأية أعراض أن تقصد الطبيب فوراً . ورأيت من الرجال من أجرى لهم الجراحون عملية إزالة الذكر والحقن بالهرمونات لينمو ثدياهم فيستقروا فى دور الأنثى . وشهدت من الأطباء النفسيين من كانت وصفته لمريضته أن تتعاطى الجنس مع رجل غير زوجها . وسمعت فى مؤتمرات أبحاثاً علمية زيفت لتثبت أن الجماع فى الدبر لا يؤدى إلى أضرار البتة.

وقرأت تقرير كينسى الذى يخلص فيه إلى أنه ليس فى الممارسة الجنسية نمط طبيعى ونمط غير طبيعى ، وليس هناك سويّ ومرضىّ ولا صح ولا خطأ .. وإنما هى اتجاهات تنتظم الناس فما نسميهم المنحرفين ليسوا إلا أقليات جنسية لها نفس حقوق الأغلبية ، وكانت جمعية الأطباء النفسيين الأمريكية تعالج الشذوذ الجنسى بوصفه انحرافاً نفسياً حتى سنة ١٩٧١ حين كفت عن اعتباره مرضاً وكفت عن علاجه باعتباره اتجاهاً فطرياً لا غبار عليه !! طالعنا كل هذا فطالعنا حقيقة كنا نظنها وهماً ، وهى أن الطب فيه الإلهى وفيه الشيطانى .. ولازال الكثيرون اليوم يسمعون عن حركة جديدة اسمها الطب الإسلامى فيتهكمون بها ويسمونها بطب الوصفات البلدية والعطارات النباتية ، مع أننا فى زمننا هذا أحوج منا فى أى زمن آخر إلى طب تضبط ممارساته أحكام الإسلام تبيح له الحلال وتعصمه من الحرام .

فالقوم حتى فى ممارسة الطبابة ألحدوا
والطب عربد فى يد الضُلاَّل لما عربدوا
ضلّوا الطريق فأصلحوا طوراً وطوراً أفسدوا
ماذا يقول لذاك طب مسلم وموحد

ويأى فلسفة يلوذ الراكعون السّجّد

اليوم فلنخترْ .. وإلا ضاع من يدنا الغد

ثم ماذا كانت الثمرة فى الغرب ؟ هل نالت المرأة ما وعدوها به من عدالة ومساواة ؟ العكس هو الصحيح .. فإن كل علاقة بين اثنين لا يحملان نتائجها بالتساوى لا يمكن أن تشكل عدلا ومساواة . لقد ظُلِمَت المرأة إذ عوشرت وهجرت ، وظُلِمَت إذ حملت فلجأت للإجهاض ، وظُلِمَت إذ ولدت فتنازلت عن ضناها للتبنى أو احتفظت به بغير أب . وتقدمت علوم الأدوية والپاكسينات والمضادات الحيوية فإذا الأمراض الجنسية تسبق أدويتها والخرق يستع على الرتق .. وتسجل الإحصاءات فى أمريكا جديداً سنوياً مضافاً إلى القديم مقداره :

٣ - ١٠ مليون حالة من الكلاميديا .

٢ « « « السيلان .

١ « « « الثآليل الجنسية .

٢,٠٠ - ٥,٠٠ « « « الهربس .

٩٠٠٠٠ حالة من الزهرى .

زادت نسبة الإصابة بالسيلان فى البنات المراهقات ٢١٦٪

بين ١٩٦٠ - ١٩٧٨ ووهى رباط الأسرة حتى أصبح كل زواجين يقابلهما طلاق فى أمريكا .

واليوم يصحو الغرب ويصحو العالم معه على هذا الزلزال الجديد المخيف وهو مرض الإيدز الذى ولد فى مهد الإنحراف الجنسى ، والقاتل دائماً ، والذى يتضاعف عدداً مرة كل تسعة أشهر ، والذى لا يرجى له فى المستقبل المنظور دواء ولا وقاء .

وما كل ذلك إلا بعضاً من كلٍ .. فالعالم الطبى اليوم يئن تحت وطأة أوبئة أخرى تجبى ضرائب فادحة موتاً ومرضاً وشقاء ونفقة .. وباء خمر ووباء مخدرات ووباء انتحار ووباء عنف ووباء أمراض نفسية وبيوت مهدومة وأواصر مقطعة وقيم مهترئة .

وأقول إن الطب مقصر لأنه يبذل المزيد وينفق المزيد فى مختبرات البحوث ومصانع الأدوية ، غبياً عن الحقيقة البسيطة التى تقول إن الوقاية إنما تكون عند المنبع .. وحسم الشر يكون بمنع أسبابه لا بملاحقة آثاره ، وواضح أن التوقى من الطوفان الذى نعيشه يكمن فى وصل الناس بالقيم الأصيلة وهداية الإنسانية إلى ربها والأخذ بيدها إلى الصراط السوى والفطرة الصافية .

ولست أرى على الساحة العالمية من هو أهلٌ لهذه الرسالة

غيرنا معشر المسلمين . قد درجنا على اعتبار أننا العالم الثالث الخفيض التابع لا المتبوع . ولعل ذلك صحيح إن أخذنا بمعطيات التقدم المادى والعلمى والتقنى . ولكن المأزق الذى يتهدد الإنسانية اليوم أعمق بكثير من هذه الظواهر . بل إننا لنخشى أن تقدم الإنسانية على الانتحار بسلاح التقدم المادى والعلمى والتقنى . إن أزمة العالم أزمة القيم فهذا هو العنصر المفقود فهو إذن المطلوب .. وخزائن الغرب منه خاوية .. وحلقُهُ إليه فى ظمأ لاهب . وليست اليهودية المعاصرة بحريصة أن تفتح عين العالم على الهدى ، وليس للكنيسة فى الغرب موقع الريادة أو القيادة بل هادنت وجاملت حرصاً على استرضاء الناس لا على الصدع بالحق الذى نزل على عيسى وجرى به لسانه ، حتى إن قسيساً فى إذاعة تلفزيونية فى سان فرنسسكو قال إنه يعتقد أن المسيح يبارك كل علاقة جنسية بناءة مرضيه حتى لو كانت بين ذكرين .

المسلمون فقط هم الذين يحملون القرآن لم يتغير منه حرف ولم يخالطه زيف . وهم الذى تركهم نبيهم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها .. وهم الذين جاءهم النور فهم مسئولون عمن يتخبطون فى الظلام .. نبيهم بُعِثَ رحمة للعالمين ، ورسالتهم

للناس أجمعين .. وآه لو أدرك المسلمون عظم ما معهم وعظم ما عليهم .. وآه لو أصبح المسلمون الآن جديرين بالإسلام وعلى مقياس عظمته .. وآه لو نقضنا الشعور بالتبعية أو الدونية وتلبسنا بالثقة بالنفس وبقول الله : { وَلِلَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلمُؤْمِنِينَ } . إذاً لنهضنا نغير وجه العالم ، وننقذ الإنسانية من شفا جرف هار توشك أن تقع فيه ، ونفى بحق الإسلام علينا .. وننجى سفينة البشرية أن تغرق فيغرق معها البر والفاجر .

إن الحضارة المعاصرة تحمل فى طياتها النعمة واللذة والتسلية والطراوة والدعة والاقتناء والاكتناز .. وهذه كلها من أمور طبيعتنا الطينية فماذا عن وديعتنا الربانية التى رفعتنا فوق الحيوان وهيأتنا لخلافة الله فى أرضه .. وبين الإنسان وبين الطين صلة . فهو خلق من الطين وإلى الطين يعود. وبين الإنسان وبين الله صلة { فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا } .. فمنهم من يقوى صلته بالطين ومنهم من يقوى صلته بالله .

والحمد لله رب العالمين .

# المفهوم الإسلامى للإنجاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً . إِنَّ فِى ذَلِكَ لأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } . صَدَقَ اللَّهُ العَظيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنْ الطَّيِّبَات .. أَفَبِالبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ } صَدَقَ اللَّهُ العَظيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ { وإذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ؟ قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ }

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ { جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وذُرِّيَّاتِهِمْ والملائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ } صَدَقَ اللَّهُ العَظيم .

ما هيأت الفكر لالتماس عناصر هذا الموضوع الذى أتصدى له حتى أحاطت به من جهاته الأربع تلك الآيات الكريمة من كتاب الله وكأنها إطار أحاط بصورة فحدد أبعادها ووضّح سَمْتها وان ازدحمت الصورة بعدُ بالدقائق والتفاصيل . فالآية الأولى تتحدث عن الوعاء الذى لا يتم الإنجاب فى شرع الله إلا فيه . وعن الأصل الذى لا يجىء الإنجاب إلا فرعاً تالياً له . إنه يتحدث عن المحبة .. عن سكينة الإلف إلى الإلف .. عن الرباط العزيز الذى يربط اثنين ذكراً وأنثى فى مودة ورحمة ، ويجعل ذلك من آيات الله . ويحرص الإسلام بعدُ على سلامة هذا الوعاء حتى وهو فكرة لم تخرج إلى حيز التنفيذ ، فيبصرنا الرسول عليه الصلاة والسلام ويوصينا بقوله : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دسّاس » وكم أطربنى وبهرنى أن أستمع لأحد أعلام علم الوراثة من

الأمريكان المسلمين من سنوات قليلة وهو يلقى محاضرة فى مجمع من العلماء تحت نفس العنوان « تخيروا لنطفكم فإن العرق دسّاس » ويحرص الإسلام على التحوّط المعقول والمشروع للوفاء بالذوق الشخصى فى الاختيار فيحض بجانب التحرى والسؤال والتوسم على النظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينهما ، ويشترط الكفاءة والرضاء المتبادل فلا تجبر أنثى على زواج ، ويوصى عليه السلام بإكرام الطرف الضعيف أو اللطيف فيقول : « ما أكرمهن إلا كريم وما أهانهن إلا لئيم » .. ثم لا يسكت عن خصائص الأمور فإنها من حقائق الحياة - فالنبى المعلم عليه السلام يقول : « ولك فى جماع زوجتك أجر » قالوا يارسول الله أياتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ فيقول : « أرايتم لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر ؟ فكذلك إذا وضعها فى حلال كان له أجر » . ( مسلم ) حتى الشهوة لم يرد لها الإسلام أن تكون وحشاً جامحاً أنانياً .. وإنما هى التحابّ المتبادل الذى كنى عنه القرآن فى عذوبة ورقة بكلمتى مودة ورحمة ، فإن استعرت حرارتها فلا يقعن أحد على امرأته كما يقع البعير ، وإن انقضت فكما قال الرسول : « إذا جامع أحدكم أهله فليصدقها ، فإذا

قضى حاجته قبل أن تقضى حاجتها فلا يعجلها حتى تقضى حاجتها » . ( أنس ) .

هذا هو وعاء الإنجاب فى الإسلام .. داخله مودة ورحمة ، وخارجه نطاق منيع وحرم مقدس ، وخيانته فى حكم الخيانة العظمى ، إن ثبتت شرعاً فعليها عقوبة الإعدام ، وإن لم تثبت شرعاً يلق مقترفها أثاما ، { يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ يَومَ القِيَامَةِ ويَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا } .

ثم نعرض للآية الثانية .. بعد أن تم البناء وأُعملت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم " النكاح سنتى .. فمن رغب عن سنتى فليس مني.." تحققت الغاية الثانية من الزواج وهى إعمار هذا الكون بالجنس الإنسانى الذى جعله الله خليفته فى الأرض ، وهو ما يعبر عنه علماء الحياة بحفظ النوع ، ويعبر عنه الرسول الكريم ( ص ) بقوله لأمته : « تناكحوا تكاثروا فإنى مباهٍ بكم الأمم يوم القيامة » . فيكون البنون والحفدة ورزق الله من الطيبات ، نعمة من الله من لم يؤمن بها فما آمن إلا بباطل ، ومن لم يشكرها ويذكرها فقد كفر بنعمة الله . وتمتد ذرية بعضها

من بعض هى كالكلمة الطيبة وكالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، وهى الأمة الوسط ، الخير فى نبيّها وفيها إلى يوم القيامة ، ولا تخلو بها الأرض أبداً من قائم لله بحجته ، مناد بدعوته ، منافح عن شريعته ولو اضطرم من حوله رغب الحياة ورهبها .

بيد أن بين الزواج وبين الإنجاب مرحلة نرى واجباً علينا ألا نضرب عنها صفحاً ألا وهى الحمل . والحمل بداية الإنجاب . وبالحمل تكون المرأة اثنين هى وما تحمل .. وبالحمل تصبح من أصحاب الأعذار فلها رخصة الفطر فى رمضان ولها عذر التصرف فى هيئة حركات الصلاة ان آدها أو آذاها نتوء أو وهن . كل ذلك معروف للجميع . وإنما أردت أن أقف هذه الوقفة متحدثاً عن هذا الذى لا يستطيع أن يتحدث عن نفسه ألا وهو الجنين ، والجنين هو أنا وأنت قبل أن يؤذن لنا فيفتحَ لنا باب الدخول الى هذه الحياة . وأريد بهذه الوقفة أن أضع أموراً فى نصابها الإسلامى الصحيح .. منها ما نشط فى العالم غير الإسلامى ثم انتشر واستشرى وهو الآن يطرق أبواب ديارنا بقوة واصرار .. ومنها ما درج عليه المسلمون وفق فهم قديم وقد تغير الفهم فآن أن يتغير

المدرج .

أما الذى فى العالم الخارجى فهو وليد ما يعرف هناك بثورة الجنس فى عصرنا الحديث .. إذ تراخت قبضة الدين هناك عن حياة الناس ولعل للناس هناك فى ذلك عذراً . تفجرت القنبلة الموقوتة التى وضعت فى المسيحية منذ أدخل فيها كهانها ما لم يكن فيها ، ومنذ نصب أهل الكنيسة أنفسهم قوامين على الفكر الإنسانى ووسطاء يحتكرون محطة إجبارية لابد أن يمر خلالها ما بين الرب والعبد وما بين العبد والرب .. ومنذ أن راحو باسم المسيحية يقاومون دوران عجلة الحياة وعجلة العلم وعجلة الحرية الفكرية الى الأمام ، فكانت النتيجة الحتمية انكسار التأخر أمام التقدم وانحسار الظلام أمام النور ، وكان رد الفعل أن تُنَحيّ الكنيسة وما تنطلق باسمه وما تدعو له عن الحياة العامة والحياة الشخصية ، وصارت معايير الخير والشر تقرر عقلانياً لا شرعياً ، وعبد الإنسان عقله وعقل الإنسان بطبيعته قابل للإيحاء طيع للمؤثرات سائغ للمبررات خاصة ان داومت الاصرار والتكرار واكتسبت مزيداً من الأنصار ، فى مجتمعات أصبحت تحلل وتحرم لا باسم الله ولكن باسم أغلبية الأصوات . وكانت النتيجة تغييراً

شاملا فى مدلولات الخير والشر ، وعرفاً سلوكياً جديداً فيه إباحة الجنس خارج الزواج واعتباره استجابة طبيعية لهاتف طبيعى . وما كان بالأمس رذيلة أصبح المنهاج الإجتماعى الطبيعى بل أصبح فى ذاته قيمة من قيم الحرية من اعترض عليه فهو إما شاذ وأما داعية ظلم وظلام . ولن نطيل فى هذا الموضوع فنثب وثوباً إلى مبتغانا منه ، وهو أن القيم الجديدة طوعت لخدمتها كل المقومات والمؤثرات بما فى ذلك التشريع والإعلام ، فكانت من بين النتائج إباحة الإجهاض لكل راغبة فى الإجهاض ضمن بطارية كاملة من الإجراءات والتسهيلات التى تخدم قضية الإباحية أضعاف أضعاف أضعاف ما تخدم قضية الإنفجار السكانى أو الدواعى الصحية أو الاقتصادية أو الإجتماعية للأسر الشريفة .

هذه موجة عالية عارمة ، لا أحسب رشاشها أصاب بلادنا بعدُ ولكنه بلل بلاداً وأغرق أخرى ، وهى دعوة إيجابية ناشطة تغزو العقول ثم الأعراف ثم التشريعات .

من هنا كان حرصنا على التحذير من الأمر قبل وقوعه ، وتبيان أبعاده العالمية ، وبيان رأى الإسلام فيه ولو بإيجاز لا يُعْوِزُه الوضوح .

نطالع كتب الفقه التى صدرت منذ ألف عام فأقل فأقل ، ثم نطالع الكتب التى صدرت فى عقدنا الحاضر ، فإذا اللاحق ينقل عن السابق والحاضر ينقل عن الماضى وجزى الله الجميع خيراً فيما عقلوا وفيما نقلوا . وكانت الخلاصة أن الجميع اتفقوا على تحريم الإجهاض إن أتم الحمل أربعة أشهر ، هى التاريخ الذى تحس الحامل لديه بحركة الجنين فى بطنها فهو إيذان بدبيب الحياة وحياة الإنسان بلا جدال معصومة بحرمتها التى أسبغ الله عليها بقوله : { مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِى إِسْرَآئِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً } أما قبل هذا التاريخ فاختلفوا ... فالشافعية اختلفوا حول إباحته قبل نفخ الروح ، والحنفية لم يبيحوه قبل نفخ الروح إلا لعذر ، والمالكية منعوه ولو قبل مضى أربعين يوما على الحمل ، والشيعة الجعفرية حرموه فى أى تاريخ ، وكذلك حرمه على الإطلاق الغزالى الذى اعتبر أن فيه من البداية حياة الإعداد وأن العدوان عليه جناية، وتكون الجناية أفحش بعد نفخ الروح ، وتبلغ الجناية غاية الفحش بعد

الإنفصال حياً بالميلاد كما كان عرب الجاهلية يقترفون من وأد البنات . ولقد كان حديث الأربعينات تحت أنظار أسلافنا من الفقهاء ، وهو الذى يقول فيه النبى عليه الصلاة والسلام : « إن أحدكم ليُجمَع فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يأتى الملك فينفخ فيه الروح ويكتب رزقه وأجله وشقى أم سعيد » .. الا إن الخلاصة أنهم امتثلوا للتعاليم القرآنية الواردة فى الآية { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ . قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إلا قَلِيلاً } . وإما دارت مداراتهم حول وقت دبيب الحياة فى الجنين وهو ما حسبوه فى أول الشهر الخامس فهو من قبل ذلك إما ميت أو فى مرحلة إعداد . ولا خلاف اليوم على الحقيقة العلمية المستقرة على أن الروح عندما تنفخ إنما تنفخ فى حى لا فى ميت . وأن حياته بدأت من بداية الحمل .. ولما كان الطبيب جندياً من جنود الحياة لا من جنود الموت فواجبه أن يحافظ عليها لا أن يمد يده لقتلها باقتلاعها من مكمنها .

ولقد فصلنا عن الإجهاض حديثاً مسهباً فى غير هذا المكان

من هذا الكتاب .. ولكن لعل من المناسب أن نشير هنا إلى كتاب صدر فى عام ١٩٨٤ عن رونالد ريجن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية باسم " الإجهاض وضمير الأمة " ، ذكر فيه أن الولايات المتحدة فقدت منذ أبيح الإجهاض سبعة عشر مليون أمريكى بطريق الإجهاض ، وهو عدد يفوق كل من فقدتهم أمريكا فى جميع حروبها على مدى تاريخها . ورغم استفحال الإلحاد وتراخى قبضة القيم الدينية عن الناس فإن الضمائر تتململ .. والصراع يتصاعد بين " جماعة أنصار الحياة " الرافضة لإباحة الإجهاض و " جماعة أنصار الحرية " ( حرية الأم فى إزهاق جنينها ) .. حتى أنتجت الجماعة الأولى فلماً بليغاً يصور فعلا الجنين فى رحم أمه إذ يتعرض لعملية إجهاض تجرى لها ، وكيف يسحب الجنين أطرافه فى ذعر عندما يمسه الطبيب بأداته الجراحية ، حتى إذا ما أطبق على بدنه بالجفت يضغطه ويحطمه إذا بالجنين يتشنج من الألم ويتلوى فاتحاً فاه مرة بعد أخرى وكأنه يصرخ من شدة العذاب . ولما عرض هذا الفلم فى التلفزيون الأمريكى أثار عاصفة من المشاعر وأمارات الندم الإجتماعى على هذه الجريمة ، وسارت المظاهرات تحتج على عيادات الإجهاض

وتهاجمها ، وقررت مئات من الأطباء التوبة عن إجراء هذه العملية منهم واحد له رصيد منها يبلغ عشرة آلاف عملية .. وبطبيعة الحال خرست الألسنة التى كانت تزعم أن الجنين الباكر غير حى أو أنه فاقد الإحساس . ولعل جماعتنا هنا من زملاء المهنة الذين ولغوا فى عملية الإجهاض يراجعون أنفسهم ويتقون الله فيما يفعلون . وسواء أكانت الدوافع مادية من أجل المال أو شفقة بالحامل لفقرها أو لتخليصها من ورطة ، فالجنين هو البرىء الذى لا يستطيع الدفاع عن نفسه وأحرى بالطبيب أن يكون مدافعاً عنه لا أجيراً لقتله .

ومادمنا عرضنا لصيانة الحمل فلا بد أن نعرض لمنع الحمل وهما موضوعان مختلفان . فلا مجنىّ عليه فى المنع بينما الإجهاض كما قال الغزالى جناية على موجود حاصل . وقد أفاض الغزالى فى مبيحات الحمل فإذا هى تتراوح بين المحافظة على صحة الأم من جانب إلى المحافظة على جمال قوامها على الجانب الآخر مروراً بما بينهما من دواع إجتماعية وإقتصادية .. وورد عن الصحابة أنهم كانوا يعزلون عن نسائهم فعلم رسول الله فلم ينههم . ولهذا فأنا خلال عملى الطبى عندما أشير بمنع الحمل أو

أصف له دواء لا أعتقد أننى آتى حراماً . ومع هذا فلدى ما أقوله ما دمت أعرض للمفاهيم الإسلامية بهذا الخصوص . فالذى يقصد منع الإنجاب تماماً يجرد الزواج من إحدى وظيفتيه الرئيسيتين اللتين حث على كلتيهما الشارع... والناس من بعدُ أحرار فيما تختار كل أسرة لنفسها وإن كان على الطبيب أن يبصر بمخاطر الحمل لدى مريضة بذاتها يكون الحمل خطراً عليها فهذه ينبغى أن تمنع الحمل بل ويباح إجهاضها إن كان فى بقاء الحمل تهديد لحياتها . ويبصر الطبيب كذلك بمخاطر عامة تزيد نسبة وقوعها فى عاليات الإنجاب . وكل ذلك سهل الفهم قريب المنال ولكنه جزء من صورة أعم نرى من الأمانة أن نكشف عنها فى هذا الزمن الذى يعرض فيه موضوع الانفجار السكانى وقلة موارد الكرة الأرضية بالنسبة لتزايد ساكنيها على أنه حكم على البشرية بالإعدام لا يدفعه إلا تقليص الإنجاب. ومع اقتناعنا بالعرض العلمى للموضوع فاننا نختلف فى وحدانية العلاج ونرى للأمر مدافيع أخرى ينبغى الأخذ بها ومرامى متشابكة ما من سبيل للاغضاء عنها . فالتعاون بين الأغنياء والفقراء قد يخفف من الكارثة .. ولكن هذا للأسف لا يسير بالدرجة المرجوة . فنرى

بلاداً تجعل من فوائضها الغذائية ضغوطاً للمساومات السياسية .. وسمعت مرة مناشدة من حكومة أوربية لشعبها أن يأكل الفرد كل يوم بيضة أكثر لتصريف الفائض لدى الفلاحين .. ونعلم أن بلاداً تفضل أن تحرق مخازين من حاصلاتها على أن تعرض أسعارها للهبوط .. وما لنا نلوم الغير وقد فشلنا على صعيد العالم الإسلامى . وعلى صعيد العالم العربى . فى تحقيق ما حض عليه الإسلام من تكاتف ومن تعاون ومن تكامل فى استثمار ما أفاء الله وانمائه وتطويعه لتأمين دنيانا وأخرانا .

وننظر للأمر من زاوية مختلفة .. فعلى الأمة أن تؤمن من السواعد ما يفى بمطالب العمران من صناعة وزراعة ومطالب الدفاع عن حياتها وصيانة حدودها ورد العدوان عنها . وهى أعباء والحمد لله موفورة على أكتاف المسلمين .. يضاف إليها عبء آخر هو أن عليها أن تحتفظ بنسبتها فى التعداد العام وفى الأصوات الانتخابية خاصة حيث يريد الكائدون للإسلام أن يعبثوا بالتوزان العددى ليميل لغير صالح الإسلام .. وحيث تحاول أقليات أن تنمو وهى فى ذات الوقت تبشر بين الأغلبية الإسلامية بتحديد النسل ومنع الحمل وما إلى ذلك ، حتى لا تمضى أجيال

إلا والتغيير الديموغرافى يملى واقعاً سياسياً جديداً .. وما أمر فلسطين فى أمسها ويومها ببعيد . ورغم كل الاعتبارات الطبية التى أصدقها وأومن بها ، فاننى أصارحكم أننى مرتاح كل الارتياح لزيادة معدل الإنجاب بين الفلسطينين حتى الفقراء خاصة داخل فلسطين المحتلة . ويوم يفقد شعب كل شىء إلا عدده فعليه ألا يفرط فيه ، وسنظل نخطب ونكتب ونطبل ونزمر ثم لا نرزأ العدو فتيلا .. ولكن الأمر الذى سيضطر اليهود اضطراراً الى القبول بالدولة الفلسطينية المستقلة بل إلى السعى لها ، هو تفاقم عدد العرب حتى يهلع اليهود أن يصيروا أقلية فى دولتهم ، وهم يحاولون إبعاد هذا اليوم بربط مقدرات العنصر العربى بالعجلة الاقتصادية الاسرائيلية ، ولكنه دفع موقوت وستتغير الأمور عندما يصبح اليهود فى دويلتهم أقلية والعرب أكثرية ساحقة .. واليهود من الآن فيما قرأت منتبهون لهذا الخطر المقبل الداهم ، بل يعتبرونه الصداع الأكبر فى دماغهم .

ولا نحسب الوقفة ازاء الحمل تطمئن إلا أن عرضنا لطرف من الجديد العلمى عنه .. حتى سنوات قليلة كان من الناس من ينتفض إذ يسمع أن بالإمكان معرفة جنس الجنين ومازال فى

الرحم ، وتدلنى الملاحظة الى أن هذا الأمر زايل منطقة السبق العلمى الى منطقة الثقافة العامة . السائل الأمنيوسى الذى يملأ الرحم ويسبح فيه الجنين غنى بخلايا من خلايا الجنين منفوضة عن جسمه .. فان اخترقنا جدار الرحم بإبرة حقنة وشفطنا بعض هذا السائل وصبغنا خلايا الجنين به استطعنا أن نطالع فيها تحت المجهر مؤشر الأنوثة الذى اكتشف سنة ١٩٤٩ إن كانت أنثى .. وليس فى ذلك زعم بمعرفة الغيب فمتى استحصلنا على خلايا الجنين فهى حاضر لا غيب فيه . ولا هو يتنافى مع قول الله : { وَيَعْلَمُ مَا فِى الأَرْحَامِ } .. فالعلم كله لله ومن الله ، منه ما اختص به نفسه فلا يطلع عليه أحدا كقوله تعالى { قُل لا يَعْلَمُ مَن فِى السَّمَوَاتِ والأَرْضِ الغَيْبَ إِلا اللَّهُ } وقوله : { لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلا هُوَ } ومنه ما أذن أن يكشف عنه لأهل العلم رويداً رويداً .. { سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمتَنَا } ... وصدق الله إذ يقول { وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلا قَلِيلا } .

والواقع أن معرفة جنس الجنين تذكرنى بقصة ذلك الصوفى

الذى أهانوه وحكموا عليه وأركبوه الحمار مقلوباً ليزفوه إلى اعدامه والصبية يقذفونه بالطين والحصى .. وأراد شامت أن يذله فسأله ما رأيك الآن فى التصوف ؟ قال أهونه ماترى . فإن معرفة جنس الجنين تشخيص بدائى بجانب عشرات الأحوال والأمراض الجنينية التى أصبح بالإمكان تشخيصها سواء بالتحليلات الكيميائية لهذا السائل الأمنيوسى أو باستزراع خلايا الجنين وفحص الصبغيات الوراثية بها .. فضلا عن التحسس باليد أو الاستماع بالمسماع أو التصوير بالأشعة أو التصوير بالموجات فوق الصوتية التى تعمل عمل الردار والتى أصبحت عماداً لمستشفياتنا وعوناً بالغ المدى .

السؤال الساخن المطروح الآن هو التحكم فى تقرير جنس الجنين .. ولسنا نقصد ما يجرى فى بلاد الإباحة من تشخيص الجنس فإن لم يكن هو الجنس المرغوب أجريت للمرأة عملية الإجهاض . وإنما نشير إلى محاولات الفصل بين المنويات حاملة الذكورة والمنويات حاملة الأنوثة وفى القذيفة المنوية الواحدة خليط منهما معاً يبلغ نحو الأربعمائة مليوناً من الحيوانات المنوية والنوعان مختلفان فى الكتلة وفى السرعة وفى الاستجابة لتيار

كهربائى ضعيف وفى مقاومة الحموضة أو القلوية وفى القدرة على اختراق لزوجة افراز عنق الرحم . على هذه الأسس قامت المحاولات ونجحت فعلا فى نطاق التجربة الحيوانية ثم فى حقل تربية الحيوان فى إمالة ميزان الذرية من خمسين لخمسين وجعله نحو سبعين لثلاثين فى اتجاه الجنس المطلوب ، وبإخضاع القطيع للعزل الطويل ثم التبويض الصناعى الموقوت بالهرمونات ثم التلقيح الصناعى المفرد بالمنى المحضر .. ولا نظن ظروف الحياة الإنسانية تخضع - ولا نتمنى لها أن تخضع - لظروف الاستنبات الآلى المحكوم خالية من اعتبارات الحنين والحنان والسكن والسكينة والمودة والرحمة وفق ما شاء الله لها أن تكون .

والحرص على جنس بالذات والتمرد على الجنس الآخر من المواليد مرض إنسانى عرفناه فى الجاهلية ومازلنا نراه ونشهده . مرده مظنة الإنسان أنه يقدر أن يبنى الخلود فى دار الفناء إن جاءه ذكر . ونسيانه أننا لا نخلق أبناءنا وإنما نستقبلهم وهم وديعة خالقهم بين أيدينا ومسئوليتنا عنهم بين يديه . ولقد أزعجنى مرة أن أرى زميلا طبيباً وضعت زوجته بنتهما الثالثة

يفتح عليها الباب ليبصق فى وجهها ويمضى . { وإِذَا بُشِرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِن الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِى التُّرَابِ ؟ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } . إن من دواعى اعتزازى واعتدادى بإسلامى أن أتعلم أن « الجنة تحت أقدام الأمهات » وأسمع النبى يقول « النساء شقائق الرجال » .. وأن أرى أول من دخل فى الإسلام أنثى هى خديجة .. أول من استشهد فى الإسلام أنثى هى سمية .. وبين القلة التى أئتمنت على سر الهجرة أنثى هى أسماء.. وأن دور المرأة فى الإسلام دور إيجابى يبدأ من رعاية الأطفال أى صنع الرجال وصوغ الأجيال ، ويمتد حتى يستوعب أن يكون السلاح الطبى فى جيش الرسول فرقة من الآسيات المؤمنات ، بل إلى أن تلقى مؤمنة كنسيبة بنت كعب عدة الضماد وقد تحرج الموقف فى أُحد فتحمل السيف والدرع وتصيب وتصاب ويقول الرسول من بعد « ما التفت يمنة أو يسرة إلا وجدتها دونى تنافح عنى » .. نماذج تمنينا لو كانت تحت أنظار حركات تحرير المرأة وحقوق المرأة وتقدم المرأة .. لتعلم أن المرأة فى الإسلام حرة لا حاجة بها لمن يحررها ،

وصاحبة حق وواجب ومسئولية جادة مركزها بيتها المسلم ومحيطها قضية الإسلام فى العالمين .

ثم ماذا عن أطفال أنابيب الاختبار ؟ ليسوا بأطفال أنابيب الاختبار وإن سموا بذلك . إنما انسدت الممرات التى تدخلها بويضة المبيض من طرف ومنويات الذكر من طرف آخر فحيل بينهما بدرجة فوق طاقة الجراحة فلا سبيل إلا شفط البويضة الى خارج الجسم وتعريضها للمنى فإن التقيا فالتحما فهو حمل بدأ خارج الجسم وعند مرحلة باكرة من نموه يودع الرحم خلال المسالك الطبيعية ليعلق به ثم ينغرس ثم يستمر الحمل كأى حمل . ولا جناح مادام الأمر فى نطاق زواج شرعى . وفى العالم حتى الآن آلاف الأطفال ولدوا بتلك الطريقة التى استقر أمرها ضمن وسائل العلاج .

وقد أشرنا فى مناسبة سابقة الى احتمال أن يكون للزوجة مبيضان يفرزان البويضات ولكن رحمها غائب أو ضامر لا يفى بالحمل .. فماذا لو أخذت بويضة الزوجة ولقحت بمنى الزوج ثم أودع الجنين الناشىء رحم امرأة أخرى تحمله حتى تلده . ورغم أن الأمر لا يشكل زنى إلا أننا بمداومة الفكر لم نقبله .. أولا لأن

المرأة الحاضن ستحمل فى رحمها جنيناً غير مصون برباط الزواج الشرعى .. وحتى لو تزوج الرجل المرأتين فلا زال غير مقبول لدينا لأنه يختزل إحديهما إلى مجرد مفرخ كتاكيت ويضع فى بطنها بذرة غيرها ويفضى إلى تنازعهما الوليد وينبو عن شمولية الزوجية وقدسيتها وجلال الأمومة ووحدانيتها ويقع فى ظلم تسخير امرأة من أجل أخرى ويهبط بصلة الرحم من قيمة إلى ثمن . قد حرم التلقيح الصناعى بمنى غير الزوج لأنه استيلاد بمنى غريب والقياس هنا واحد لأنه استيلاد ببويضة غريبة . وبينما نرى أمومة الرضاع أمومة تكريم وتقدير وتوقير ومعنى يسمو بذاته على اعتبارات صلة الدم ، نجد أمومة الحاضن تلك أمومة سخرة واستغلال وقهر وشحناء . ولعل فى الجديد القادم من انجازات العلم والتقنية مما لا يتسع المجال لذكره هنا حافزاً لايلاف جهود علماء الطب المسلمين وعلماء الفقه المسلمين معاً للتدارس والتفاهم والفتيا للناس فى هذه المحدثات التى لم يرد فيها نص ولا لها سابقة تقاس إليها . فإن الإسلام لا يعيى بالرأى ولا بالهدى شريطة أن تنقدح بالفكر أمخاخ علماء المسلمين . وقد قامت بذلك فعلا ندوات مشتركة بين الفقهاء والأطباء أوصت بأن

طريقة أطفال الأنابيب جائزة فقط بين زوج وزوجه حال قيام الزوجية وبغير تداخل غريب من منى أو بويضة أو جنين أو رحم .

وبعد

فأرانى أطلت الحديث عن بيولوجية التكاثر فكفانا منه ما بهذا صار الإنسان إنساناً ولا به جعله الله خليفته فى الأرض . إنه الجانب الطينى من الإنجاب ، الذى يتشابه فيه الإنسان والحيوان ، لا الجانب النورانى الروحانى الذى أودعه الإنسان تصديق قوله { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ } .

ونعود لذكر الله ابراهيم فى كتابه { قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ؟ قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِين } .. ولإخباره تعالى نوحاً عن ابنه { إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غير صالح } . والنبى عليه الصلاة والسلام حين وصى « تناكحوا تكاثروا » لم يقصد إلى التعداد كيفما اتفق ، يدل على ذلك حديثه « توشك أن تتداعى عليكم الأمم تداعى الأكلة إلى قصعتها » حتى قال

« وليقذفن - أى الله - فى قلوبكم الوهن » سأله أصحابه أو من قلة نحن يارسول الله ؟ قال « أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل » قالوا وما الوهن ؟ قال « حب الدنيا وكراهية الموت » . بأبى أنت وأمى يارسول الله . ولينظر ذو بصر حوله ليرى صدق نبوءتك فى واقعنا وحاضرنا . وطالما نددنا بالفقر والجهل والمرض فجعلناها مشاجب نعلق عليها مصائبنا .. فقد آتانا الله الغنى والتعليم والصحة فهل أغنت وهل علمت وهل صححت ؟ إنها أزمة الإيمان . ولهذا اتسمت أمة الإسلام فى أمسها بأنها قلة تغلب كثرة ، وفى يومها بأنها كثرة تغلبها قلة ..

بالأمس كنا دعام الأرض نمسكها ما بال حاضرنا قد خف ميزانا
تداعت الدول الكبرى لمأكلنا وناشت الدول الصغرى بقايانا
والقدس والقبلة الأولى وصخرتنا رهن اليهود ومسرانا وأقصانا
وفى الفلبين جرحانا وما نزفوا وفى أرترية لم نحص قتلانا
المؤمنون كبنيان فوا أسفا قد انفرطنا فلسنا اليوم بنيانا
كنا سلالتهم روحاً ومعتقداً صرنا سلالتهم طينا وأبدانا

وبيننا عرب ظنوا عروبتهم أعلى من الدين بل عدوه نقصانا
ورب داع إلى عرقية فاذا ذكرت إسلامه يزورّ غضبانا
أخا العروبة ماذا عن عروبتنا لو لم نصادف بهذا الدين محيانا
وما الذى صاغنا فى أمة عظمت وعيشنا كان ثارات وأضغانا
لولا الكتاب لما دامت لنا لغة ولا علمنا لغى قس وسحبانا
وكم بلينا بأعداء مدمرة فلم يكن فى سوى الإيمان منجانا
" الغير أكبر " يوم الذل دعوتنا " والله أكبر " يوم النصر دعوانا
ولم نروّض عباب الحادثات لنا إلا وبالله مجرينا ومرسانا

الإنجاب فى الإسلام لا يقف عند الميلاد .. البّرّ يلد والفاجر يلد والبهيم يلد ولكن على المسلم أن ينجب ولا إنجاب بلا نجابة إذا ولد المسلم بدأ مهمته لا فى الغذاء والكساء فقط ، ولا فى المدرسة فقط ، ولا فى تأمين مستقبل ولده بكنز المال والعقار والأسهم والسندات فقط فالمستقبل أقله فى الدنيا وأكثره فى الآخرة وما نعلم لهذه من مزرعة إلا تلك . ويولد المولود على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه فما أفدحها من

مسئولية ويا خسران من ضاع عنها .

لقد أفادتنا المطبعة بأنها تطبع لنا كتاب الله وكتب الحديث والفقه والعلم قديمه وجديده . ويوم يداخل عمل المطبعة الفساد بالخطأ المطبعى ثم بالتحريف ثم بالتخريف ثم بالتغيير ثم بالاهمال والإفساد ، فآنذاك تكون المطبعة وبالا وخبالا . ومفهوم الانجاب فى الإسلام أن يكون المسلم مطبعة تطبع الإسلام لا كتباً بل رجالا أجيالا فأجيالا . ومعنى هذا أن يكون الأصل صحيحاً لأنك ان استنسخت الخطأ جنيت الخطأ . فهذا إذن أولا واجب القدوة وقد علمنا أن فاقد الشيء لا يعطيه . ويأتى من بعده واجب الزراعة والتعهد بالسقيا والتنقية من الآفات والأوضار ليكون الحصاد سوياً فهذا واجب التربية . واجب الأمهات والآباء وأقدم فى هذا المضمار الأمهات غير مهون من الآباء ، أن يصنعوا من أبنائهم وبناتهم المؤمنين والمؤمنات المسلمين والمسلمات وأن يجعلوا من أبنائهم غير عبيد الدرهم والدينار والقطيفة وأن يفعلوا ذلك على الرغم من فتنة إقبال الدنيا بالمال والنعمة واللذاذات أو فتنة ادبارها بالفقر والحرمان والتعاسات وكلاهما موجود فى العالم الإسلامى على أبعد مدى والحمد لله وكأننا لسنا الجسم الواحد

إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء .. على الأمهات والآباء أن يفعلوا ذلك على الرغم من الدعوات الصاخبة إلى الإلحاد أو الإباحية أو المادية أو زيف التحررية فى عالم مازالت قرابة نصفه تقول لا إله وقرابة نصفه تقول إله ولكنه يملك ولا يحكم فلا يتدخلن فى شئون الحياة سياسة أو اقتصاداً أو خلقاً شخصياً أو دولياً . على الآباء والأمهات أن يفعلوا ذلك والمطبعة والسيما والتلفاز المتربع فى كل بيت تلبس مسوح العدل والقسط فتقول علينا أن نرضى جميع الأمزجة والأذواق فإذا حديث الشيخ الشعراوى يتلوه الرقص الشرقى والاستعراض الغربى ، فى قدرة عجيبة على موقف الحياد بين ما يرضى الله وما يغضب الله ، أى الحياد بين الله وأعدائه .

على الآباء والأمهات أن يطبعوا الأجيال على الإيمان الصامد ، والرسالة التى تستحق أن توهب لها الحياة . ومن قصر فى ذلك حتى الآن فالبدار البدار ومن الآن . إن الخنساء التى بنت لنفسها مجداً أدبياً باقياً مفتاحه :

ما هاج دمعك أم بالعين عوار  أن ذرفت أن خلت من أهلها الدار..

ترثى أخاها صخراً ، هى هى التى ودعت بَنِيها لمعركة

القادسية بقولها : « يا بَنىّ .. إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين وإنكم لبنو أب واحد وأم واحدة ، ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم ولا هجنت حسبكم ولا غيرت نسبكم . وقد تعلمون ما أعد الله للمؤمنين من الثواب الجزيل فى حرب الكافرين . واعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الفانية . يقول الله عز وجل { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها فتيمموا وطيسها وجالدوا رسيسها تظفروا بالغنى والكرامة فى دار الخلد والمقامة » ونعوا إليها أبناءها الأربعة بعد المعركة فما بكت ولا رثت : بل « الحمد الله الذى شرفنى بشهادتهم وأسأل اله أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته » .

هذا نموذج كان بحمد الله وهو كائن بفضل الله رأيت له فى الشرق والغرب مشابه ومماثل فلعله يشيع ويذيع إن شاء الله .

ولعل لى هنا أن أستأذنكم أن أذكر نعمة الله علىّ بوالدتى رحمها الله . أبعد ما تستطيع الذاكرة أن تبلغ اليه من طفولتى قولها « لما حملت بك نذرت أن أسميك حسان وأن أهبك لإخراج

الإنجليز من مصر » .. كان هذا رضاعى المعنوى وكان مثله زاد الطفولة واليفاع والشباب .. فلما قسمت فلسطين عزمت أن أستهل حياتى الطبية بالتطوع مع المجاهدين فكان هذا غريباً قبل أن تدخل الدول العربية الحرب وكان غريباً على العشيرة التى نشأت فيها .. إلا هى فقد قالت « هذا هو الواجب الذى لا أستطيع أن أمنعك عنه » .. وما مضى على عودتى قليل حتى شهدت القيد فى يدى فصاحت بى بين دموع الأهل « هذا الذى فى يديك وسام لا قيد يا حسان » .. وعندما كانت المحاكم تحكم على من يساعد عائلات المسجونين والمعتقلين المسلمين بسنة سجن عن كل قرش مساعدة ، كانت تقول من عنده زكاة أو فضل مال فإلى به ثم تلبس ملابس القرويات تجوب الأزقة والحارات وتدخل إلى بيوت بقوت البنين وستر البنات وصون الأعراض وغطاء العورات .. فلما أعفاها الله من عبء الحياة كنت وأخى - كل من أنجبت - مغيبين : ورجعت إلى ربها راضية مرضية .

كل آت قريب . وسبحان من له الدوام . والآخرة أبقى عنوان إقامة من الدنيا .. وسواء أكانت جلطة قلبية أم ورمة سرطانية أم حادثاً داهماً أم شيخوخة ذابلة ، فلا بد من سبلة الجفن وضجعة

الموت : لا نهايةً بل بداية .. فما بين هذه الحياة والتى تتلوها إلا لحظة فما دونها . فإذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له ..

ومفهوم الإنجاب فى الإسلام أن نجعل من أبنائنا فى دنيانا وفى أخرانا صدقاتنا الجارية ، والعلم الذى ينتفع به ، والدعاء الذى تنالنا بركته ولو كنا على الشاطىء الآخر من الموت .. نعمة من الله موصولة تفضى بها الدنيا إلى الأخرى ، وحياة بفضل الله ممدودة لا يعنى الموت فيها إلا ترحاب سابق بلاحق ، وصحبة عز وكرامة فى أرض الله وفى جنة الله { وَالذَّينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّنْ شَىْءٍ . كُلُّ امْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ } .

# الإجهاض فى الدين والطب والقانون

فى تصدّىَ لموضوع الإجهاض أبصرت له ثلاثة مداخل ارتأيت أن أدخل منها جميعاً .

المدخل الأول قصة طالعتها فى كتاب كليلة ودمنة عن ثلاث سمكات ، كيّسه وأكيس منها وعاجزة ، تسامعن بقدوم صياد إلى غديرهن ، فأما الأكيس فاتخذت قرارها على الفور فنزحت من غدير إلى غدير ، وكأنها تترك ما يريب إلى مالا يريب ..

وأما الكيسة فما إن أبصرت شبكة الصياد يطرحها فى الماء حتى احتالت وناورت فاتخذت لنفسها مداراً ومساراً فوق مرمى الشبكة فنجت منها ..

وأما العاجزة فأخذتها الغفلة حتى احتوتها الشبكة فأطبقت عليها فأصبحت من الهالكين .

ولقد أصبح موضوع الإجهاض الآن موجة عالية وأصبحت المجتمعات أمامها عاجزاً وكيساً وأكيس . ولعل انتباهة قبل

وقوع الأمر توفر جهداً كبيراً بعد وقوعه ، والأمثلة متعددة فى منطقتنا العربية .

والمدخل الثانى خواطر اتسقت فى نفسى وأنا أتلو فى قرآن الله الكريم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ { يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً ولا يَسْرِقْنَ ولا يَزْنِينَ ولا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ ولا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وأَرْجُلِهِنَّ ولا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ واسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ . إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } ( الممتحنة ١٢ ) . ووقفت متأملا عند قوله «ولا يقتلن أولادهن» ، وسألت نفسى : وهل كانت النساء يقتلن أولادهن ؟ وذكرت أن الجاهلية عرفت قتل الأولاد فى مواطن تعرض لبيانها القرآن الكريم . ولكننى ذكرت أن اليد التى كانت تمتد بالقتل كانت دائماً يد الرجل لا يد المرأة . فهناك وأد البنات خشية العار { وإِذَا بُشِرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِن القَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ

أَمْ يَدُسُّهُ فِى التُّرَابِ ؟} ( النحل ٥٨ - ٥٩ ) . وواضح أن الأنوثة ما كانت لتكون عيباً فى نظر المرأة بل فى نظر الرجل . وهناك قتل العيال نتيجة الفقر الواقع أو الفقر المرتقب { ولا تَقْتُلُوا أَوْلادكُم مِّنْ إمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وإيَّاهُمْ } (الأنعام ١٥١) - { ولا تَقْتُلُوا أَوْلادكُمْ خَشْيَةَ إمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وإيَّاكُمْ } (الإسراء ٣١) .. وسواء أكانت دوافع الجريمة معنوية لدفع العار أم مادية لدفع الفقر فقد كان المجرم على الدوام هو الرجل ولم يرو لنا التاريخ أن امرأة مارست تلك الجرائم .. يفضى بى اجتهادى إذن أن قول الله فى بيعة النساء { ولا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ } إنما ينصرف إلى إحداث الإجهاض فهذا هو النوع الوحيد من القتل الذى لم يكن للرجال به بصر ولا خبرة وإنما انفرد به عالم النساء دون الرجال .

أما المدخل الثالث فهو أننى طبيب .. وأننى مسلم . وللطب أصوله وفروعه وكلياته ووقائعه . وللإسلام أوامره ونواهيه وقواعده التى يعرف الناس بها الحلال والحرام بينين أو مشتبهين .

ومسألة الإجهاض من المسائل التى تجابهنى كل يوم خلال عملى طبيباً لأمراض النساء والولادة ، وتجابه غيرى من الأطباء فى مشارق الأرض ومغاربها . ويؤود الطبيب وهو يتحرى ما يعمل أن مسألة الإجهاض فى الزمن الأخير لم تعد مسألة طبية فى أيد الأطباء .. لقد نازعهم عليها وانتزعها منهم أهل التشريع وأهل الاجتماع وأهل الدراسات السكانية والاقتصادية وأهل المذاهب المعاصرة فى فكر وخلق وسلوك . هذه التى غيرت معالم العالم فى الزمن الأخير تغييراً شاملا لسنا بمعزل عنه ولا نستطيع أنَ نكون ، فالعالم كمشته المواصلات وموجات الأثير والمطبعة حتى أصبح يحس كل من فيه بكل ما فيه .

وليت القول الفصل فى مسألة الإجهاض يتأتى إن فتحنا كتاباً فنقلنا ما فيه ولكن الله بجانب ما أنزله من تشريع لم يعف الأعين من أن تبصر ولا الآذان من أن تسمع ولا الأفئدة من أن تفكر .. فقد جرت سنة الله أن تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا . وأدرك هذا فقهاؤنا الأوائل فكانت لهم الآراء تختلف وتتفق ، بل كان للشافعى مذهبان ، فيقال قال فى القديم وقال فى الحديث ، بل إن عمر ليجيب عن السؤال إجابتين بينهما زمان ،

فيقول : « أفتينا بما علمنا ونفتى بما نعلم » .

وقد أصبحت مسألة الإجهاض فى زمننا هذا غير ما كانت فى زمن كثير مما بين أيدينامن الكتب ، وأصبحت أبعادها عالمية فهى كسعر العملة ومناطق التوتر السياسية وجبهات الحرب باردة وساخنة وسريان الأوبئة وقضايا الطاقة - لا يمكن أن تفهم إلا إن استوعبنا أبعادها العالمية وألمنا بالتيارات التى تحركها ودرسنا اتجاهها من أين وإلى أين ؟ . فإذا عُرفت العلة بَانَ الحكم .. فالأحكام فى الإسلام إلا أحكام التعبد تدور مع العلة .. وبهذا أدخل إلى الموضوع .

## تطور النظرة القانونية للإجهاض :

منذ قديم كان الإجهاض مقيتا ، وفى قسم أبقراط الذى تتوارثه المهنة عبر الأجيال يقسم الطبيب ألا يصف دواء يجهض به حاملا .. وحتى الأمس القريب كان الإجماع منعقداً أن ليس للإجهاض من مبرر إلا أن يكون استمرار الحمل مهدداً لحياة الأم - ولازال هذا معمولا به فى قوانين كثير من البلاد بينها مصر ولبنان والأردن وسوريا وغيرها .. وقد تزاد العقوبة إن كان

المجهض طبيباً أو صيدلياً أو قابلة . ولكن شهدت السنوات الأخيرة تطوراً فى تشريعات الإجهاض يختلف من بلد لآخر .. وأعفى القارىء من تفاصيل القوانين فى كل بلد .. فاعترف القانون بمبررات للإجهاض غير المبررات الطبية ووسع القانون للإجهاض فلم يصبح الإجهاض القانونى مرادفاً للإجهاض الطبى بل أوسع منه ..

وأصبح القانون يعترف بمبررات للإجهاض هى :

١ - ***الدواعى الطبية*** .. وهى ما أشرنا إليه آنفاً .. ولكن وسع فى بعض البلاد مدلولها وبوعد ما بين قوسيها .. فبدأت بالخطر على حياة الأم إن استمر الحمل ، ثم الخطر على صحتها ، ثم على صحتها الجسمية أو النفسية ، ثم عليها فى الحاضر وفى المستقبل المنظور ، ثم على الصحة الجسمية أو النفسية لأفراد الأسرة الآخرين بما فيهم الأبناء الشرعيون أو الأبناء بالتبنى .

٢ - ***الدواعى الجنينية*** .. وهى ملحقة بالدواعى الطبية ، فى الحالات التى يتيقن أو يترجح فيها أن الجنين مصاب بمرض أو عاهة أو مات فعلا .

٣ - ***الدواعى الإنسانية*** .. مثل إباحة إجهاض الحمل الناتج عن الاغتصاب أو وقاع القاصر أو المجنونة .. ومن أمثلة ذلك قضية الأستاذ الدكتور بورن المشهورة فى بريطانيا فى الثلاثينات إذ أجهض بنتاً فى الرابعة عشرة اغتصبها ثلة من الجند.. ورغم أن دافعه كان إنسانياً إلا أن دفاعه فى المحكمة كان طبياً إذ اعتبر أن صغر حجم الحوض عظمه ولحمه يعرضها للخطر الشديد عند الولادة .. وأخذت المحكمة به وبرأته .

٤ - ***الدواعى الطبية الاجتماعية*** .. وهى تأخذ فى الاعتبار غزارة الإنجاب أو تقارب الولادات - والآثار الجسمية أو النفسية التى لا ترقى لدرجة المرض ، ومنها أيضا صغر السن أو كبره .. أو الظروف الحرجة التى تتعرض لها الأنثى غير المتزوجة إن حملت .. ونذكر هنا أن القانون التونسى يبيح الإجهاض إن كان للسيدة خمسة أطفال أحياء . وأن القانون الأردنى وإن كان يعتبر الإجهاض جريمة إلا أنه اعتبر ظرفاً مخففاً أن يكون الإجهاض قد أحدث اتقاء فضيحة تمس الشرف .

٥ - ***الإجهاض حسب الطلب*** .. وهو الصيغة التى تود أن تتحرر حتى من التحايل على القوانين . وهى خاتمة المطاف

للموجة الإجهاضية المعاصرة ... وقد شقت دعوته طريقها بمثابرة وإلحاح حتى اعترف بها القانون فى بعض الدول الشرقية والغربية مثل هنغاريا وروسيا وأمريكا .. وإن كانت روسيا تشترط أن تلقى المرأة لجنة تحاول إقناعها بالعدول وإلا فلها ما شاءت .

ماذا وراء التغيير والتطوير فى تشريعات الإجهاض ؟

واضح أن التشريعات التى استحدثتها كثير من الدول تهدف عموماً إلى الانتقال من تقييد الإجهاض إلى إطلاقه فى درجات متفاوته .

ولم يكن الإجهاض فى ظل التشريعات التى تضيق رقعته مقيداً بالمعنى المتوقع .

وإنما كان هناك أفراد من داخل المهنة الطبية أو من خارجها مستعدون لإجراء الإجهاض سراً لقاء أجر متفاوت .. ومنهم من جمع ثروات طائلة من وراء ذلك . وكان هؤلاء المجهضون فى الخفاء سبباً - خلال تجارتهم - فى إزهاق أرواح كثيرات .. أو إصابة كثيرات بمخاطر صحية تحيا بعدها الضحية بعلة مزمنة أو تفقد القدرة على الإنجاب . ولعل مآسى هذا النوع من الإجهاض - الذى كان يسمى « الإجهاض الإجرامى » كانت من

أقوى حجج المطالبين بإباحة الإجهاض .. فمادام الإجهاض سيتم فمن الخير أن يتم فى ظروف مأمونة وتحت رعاية طبية وافية .

وكما كانت القوانين تهدر بالاستخفاء منها كذلك كانت تهدر بالتحايل عليها .. وفى ظل القوانين التى وسعت رقعة الإجهاض بدافع الخطر على الصحة الجسمية أو النفسية ، كان يكفى أن تقول الفتاة « سأنتحر إن لم تجهضونى » .

على أن هناك ظاهرة لوحظت جديرة بالتسجيل .. فقد كان يظن أن إباحة الإجهاض بالقانون ستقضى على تجارة الإجهاض الإجرامى ولكن دهشت السلطات عندما تبين أن العكس هو الذى حدث . ففى هنغاريا قبل عام ١٩٥٦ وهو العام الذى أبيح فيه الإجهاض - كان عدد الإجهاضات غير القانونية فى حدود مائة ألف إلى مائة وخمسين ألفا .. فإذا هى بعد الإباحة تصل مائة وستين لمائة وثمانين ألفاً فى الستينات .. وتجاوز مائتى ألف عام ١٩٦٨ .. ثم تزيد زيادة فادحة . وصدقت ذلك تجربة اليابان وغيرها من الدول كاسكندينافيا بعد إباحة الإجهاض .

وحرى بالذكر كذلك أن بعض الدول التى أباحت الإجهاض بقصد تخفيف حدة الإنفجار السكانى أو بمعنى آخر إقرار

الإجهاض وسيلة لتحديد النسل ، قادتها تجربتها إلى مأزق بدأ يقض مضاجعها .

ففى اليابان حيث الإجهاض مباح منذ ١٩٤٨ هبط معدل الولادة إلى ١٣,٥ فى الألف .. وصحت السلطات على حقيقة مُرَّة - هى نقص عدد الشباب عن الوفاء بمطالب العمالة ، فإذا أضفنا أن العناية الطبية أدت إلى زيادة عدد المسنين فى المجتمع تبين أن الشريحة الحاملة وهى شريحة العاملين المنتجين قد تقلصت بالنسبة للشريحة المحمولة المكونة من الأطفال فى جانب والعجائز فى جانب آخر .

وفى رومانيا أبيح الإجهاض عام ١٩٥٦ فزاد عدد حالات الإجهاض القانونى إلى ربع حالات الحمل كلها سنة ١٩٥٨ ، وثلثها سنة ١٩٥٩ ، ثم تفاقمت حتى جاوز عدد ما يجهض من الحمل عدد ما يكتمل إلى الولادة .. ورأت الدولة أن الأمة تمارس لوناً من الانتحار بالانقراض فبدأت تتراجع وتعود أدراجها بقصر السماح بالإجهاض على الدواعى الطبية ، وتشجيع نمو الأمة بمنح مكافأة وعلاوات عن الولادة والمواليد ، وتقرير إجازة أمومة براتب كامل ، وإعفاءات ضريبية للأسرة الكبيرة .. وتبعت رومانيا

غيرها من دول أوروبا الشرقية ، ثم أخيراً فرنسا وألمانيا كما نشرت جريدة النيوزويك سنة ١٩٨٧ .

أما القانون الإنجليزى الذى صدر فى ١٩٦٧ فقد أباح الإجهاض إن كان استمرار الحمل يحمل فى طياته خطراً جسمياً أو نفسياً على المرأة هى أو أى طفل من أطفال العائلة بما فيهم أبناؤها أو أبناء زوجها أو الأولاد بالتبنى .. وفى قياس الخطر حض القانون على اعتبار الظروف البيئية الحاضرة أو التى ترتقب فى المستقبل المنظور .

وعلى هذا فإن القانون يتسع لأن يقال إن أسرة تتبنى طفلا ثم تحمل الزوجة ولكن الطفل المتبنى يؤذيه نفسياً قدوم الجديد فيباح أن تجهض المرأة .

وكان واضحاً أن القانون الجديد لم يكن استجابة لطلب الهيئات الطبية . بل إن مجلس الجمعية الملكية لأطباء التوليد وأمراض النساء طلب أن تشكل لجنة من الأطباء والقانونين لبحث الموضع فأهمل طلبه .. واجتاحت بريطانيا موجة إعلامية عاتية تنادى أن الإجهاض حق لكل من تريده وأنه لا يجوز أن تحمل امرأة جنيناً لا تريده .

وقد أعلنها الدكتور السير توماس جفكويت فى الإذاعة البريطانية ، فقال إن قانون الإجهاض قد احتضنته مجموعة من المشاغبين قليلة العدد ولكن قوية التنظيم ، غزت الرأى العام بالدعاية المغرضة المحرفة وسخروا الصحافة فى غسل مخ الأمة بشعار الإجهاض حسب الطلب ، وبأموال مجلوبة من الخارج طبعوا وروجوا كتيباً يشرح القانون الجديد بأسلوب مغرض .. وعندما عرضنا المساهمة فى البحث قال أحد أعضاء البرلمان : نحن هنا لنشرع لا لنسمع لآراء الفنيين .

كان القانون الجديد إذن فى غاية المرونة . وقد ترك الظروف للطبيب فماذا كان ؟

كان أن الذى يحكم ضميره ظل يحكم ضميره .. ولكن الذى يتعاطى تجارة الإجهاض خفية جاهر بتعاطيها فى ظل القانون وفى حمى شرعية لم تكن من قبل .. وكان أن الذين جاءوا بالقانون بدعوى حماية الناس منهم أصبحوا هم فى حماية القانون .

وماذا كانت الآثار المباشرة لتنفيد القانون ؟ تبدت الملاحظات الآتية :

أ - زيادة مضطردة فى حالات الإجهاض لدرجة شغلت من أسرة المستشفيات ومن وقت الأطباء الاختصاصيين ما عطل علاج المريضات بالأمراض الأخرى .

ب - كان من بين النساء المجهضات ٤٤ بالمائة فقط سيدات متزوجات .. أما الـ ٥٦ بالمائة الباقية فكانت أحمال سفاح فى بنات ( ٣٧ بالمائة ) أو مطلقات وأرامل ( ٩ بالمائة ) وهو ما ينبىء عن حقيقة الحاجة التى يلبيها القانون الجديد . وفى أمريكا بلغت نسبة حمل السفاح بين المجهضات درجة أعلى من ذلك .. ثم أعلى بكثير .

جـ - كانت ثلاث مستشفيات خاصة فى لندن تجرى من الإجهاضات أكثر مما تجريه مستشفيات منطقة لندن المجانية الحكومية .. وهذا يدل على مدى الاستغلال التجارى للإجهاض .

د - ورغم إباحة موانع الحمل وإباحة الإجهاض فقد زادت نسبة ولادات السفاح إلى الولادات الحلال زيادة كبيرة .. مما يدل على أن لب القضية هو إشاعة جو من التسيب وعدم الخجل من الحرام وعدم الاكتراث بالروادع والزواجر والمسئوليات وبعبارة أخرى تفشى الإباحة الجنسية .

## الخلفية الأخلاقية التى أفضت للإباحة

الذى ذكرناه من تطويع القانون حتى أفضى لإباحة الإجهاض لا يمكن النظر إليه مجرداً .. فهو جزء من صورة لا يفهم إلا بالنظر للصورة كلها وإلا كنا كمن قرأ { لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ } ثم سكت ، فموجة إباحة الإجهاض هى خيط من نسيج ، وخطوة على طريق ، وجزء من كل ، اجتاحت العالم بعد الحرب العالمية الأولى فلسفتان جديدتان أو لعلهما ذراعان لفلسفة واحدة .. الأولى تنكر الله أساساً وتنكر الدين متهمة إياه بأنه أفيون الشعوب . وتدعى أن الأنبياء كانوا مصلحين اجتماعيين أرادوا إغراء الناس باتباعهم فوعدوهم بمغانم لم يكونوا يملكونها .. ولهذا أحالوهم

إلى مصرف وهمى يسمى النعيم فى الآخرة « واتسعت هذه الفلسفة حتى أصبحت تبسط رواقها على أكثر من ثلث سكان الأرض » . وقد هدفت من البدء إلى إخلاء النفس من الله .

أما الذراع الثانية فرفعت فى الغرب المسيحى شعار مذهب جديد اسمه « الفضيلة الجديدة » راكبة موجة التقدم العلمى والانتصارات التى حققها العقل البشرى . وراح هذا المذهب يمجد هذا العقل وينادى بجعله الهادى والمرشد والمحور الذى تدور حوله الحياة .. والمرجع فى تنظيم السلوك .. فما وافق عليه العقل فصواب وإلا فهو الخطأ .. ولما بلغ الغاية من تقديس العقل دعا إلى أن يعرض الإنسان عليه كل التراث الإنسانى ليراجعه فى تحرر من المورثات السخيفة البائدة أو التى آن لها أن تبيد . وفى دوره الجديد سلطة عليا فى حياة الإنسان أخذ العقل يقر ويستبعد ، ويحرم ويحلل ، ويثبت وينفى ، وباختصار احتل العقل مكانة الإله المعبود .

وفى موجة عارمة من غسيل المخ لم ينتبه الناس إلى أن إلههم الجديد محدود وناقص . فالعقل يبصر حتى الأفق ولكن وراء الأفق آفاقاً لا يحيط بها . والعقل ناقص العلم ، وإلا فما

الحكمة فى إقامة المختبرات ورصد الميزانيات للبحث العلمى . أليس كل يوم يأتينا بكشف جديد حجة علينا أننا كنا فى اليوم السابق أقل علماً ؟ أليس اجتهادنا الفائق فى البحث العلمى مرادفاً لإدراكنا أن هناك ما نجهله ؟

وراح العقل فيما راح يستعرض القيم والفضائل القديمة ويضع بدلا منها قيماً وفضائل جديدة . وتحت رايات الحرية بشر الإنسان بأنه حر فيما يفعل مادام لا يؤذى غيره ..

وقامت تساند هذه الحركة حركة فكرية أخرى منفصلة عنها فى الظاهر لا فى الباطن.. إسمها مذهب « الفضيلة بلا دين »..

داعية الى أن على الإنسان أن يحب الخير لذاته ويكره الشر استجابة لفطرته وبغير حاجة إلى اعتناق دين ما .. بل ها هو ذا الدين طالما فرق الناس وتسبب فى المذابح حتى بين أبناء المسيحية ذاتها . وقالوا إنما كان الدين ليهدى الإنسان للمحبة وحسن المعاملة والأمانة والخير ، فإن أمكن تحقيق هذه الغايات عن غير الطريق الدينى فقد غنمنا الخير محضاً وأمنا التعصب والانغلاق وما يجران إليه .. إن على الإنسان أن يحتكم إلى ضميره فهذا هو الحكم المهم ، وكم من صاحب دين يقيم الشعائر ويتمسك

بالطقوس والعبادات وهو مع ذلك غشاش أو حاقد أو فاسد أو غير أمين .

ولقيت هذه الدعوة إلى الفضيلة هوى كبيراً فى نفوس كثيرين من الفضلاء . وكان ذلك كسباً كبيراً للحركة ، فالمهم عندها ألا يكون للشر والخير ميزان ثابت لا يستطيع أحد أن يعبث به . ومتى زحزحت صخرة الإيمان وقام ضمير الإنسان مقام تعاليم الله فالأمر بعد ذلك من السهولة بمكان . فالحارس الجديد لطيف وطيب ، ومادام قد تحرر من ردع العقيدة وتلبس بحرية الحركة فالمنافذ يسيرة دون أن يشعر بها ، ونفس الإنسان قابلة للتغيير والإيحاء بل إن الحديد ليلين بشدة الحرارة ومداومة الطرق .

وكانت النتيجة الحتمية أن تقلص ظل الدين عن حياة الناس، وخفت صوت الله فى نفوسهم . ومرت الأيام فإذا الرأى العام الغربى قد أدار ظهره لله بل اجترأ عليه ، وربما ساعد على ذلك أن العقل المتفتح لم يعد يسيغ ما أدخله الكهنوت على المسيحية مما لم يكن فيها . ولقد دهشت ودهش الكثيرون دهشة بالغة حين طلع علينا أحد أعداد مجلة التايم سنة ١٩٦٦ مصدراً بعنوان ضخم يسأل « هل الله ميت ؟ » وحسبت الأرض تزلزل

زلزالها وتخرج الأرض أثقالها والمجلة من أوسع صحف العالم انتشاراً .. ولكن ظلت المجلة تلوك الموضوع قرابة السنتين .. بين مؤيد ومعارض .. وفى عددها فى ١٩٦٩/١٢/٢٦ أوردت مقالا اسمه « الكهنوت الجديدة وإعادة الحياة إلى الله » . وكما يكون البذر يكون الثمر .. وغير عَصِيٍّ على الفهم كيف أن كثيراً من محرمات الماضى صارت من مباحات الحاضر .. وتحت شعار « الفضيلة الجديدة » مادمت لا تؤذى فأنت حر .. ولم تلق لمفهوم الأذى إلا النظرة السطحية .. وتغير فيما تغير النظر إلى العلاقة الجنسية ، وإذا الفضيلة الجديدة هى بعينها الرذيلة القديمة .

وأتبع ذلك بموجة ضارية وهادفة من كل ما يبعث على الإثارة الجنسية من أفلام السينما وروايات المسرح والأغانى والرقصات والأزياء وكتب المتعة السريعة وكتب الفلسفة العميقة وبرامج الإذاعة والتلفزيون ومحاضرات عامة ولقاءات فردية .. حركة شاملة فى عنان واحد إلى هدف واحد .. وصارت تياراً اجتماعياً يجرف المجتمعات زرافات لا وحدانا .. ولم تجد الحركة مجالا فقصرت فيه .

أستاذ علم النفس فى جامعة بريطانية كبيرة يحذر من العقد

النفسية الناجمة عن الكبت الجنسى لدى الشباب . وبرتراند رسل يعلن فى حديث تلفزيونى سعادته بتحقيق دعوته لإقامة علاقات الجنس بين الزملاء والزميلات من طلاب الجامعات ولكن شرط عدم الحمل .. وقد أصبح ذلك ممكناً بفضل موانع الحمل . ولم تنج الكنيسة ذاتها من هذا الغزو الفكرى .. ففى مجلة التايم ١٩٦٦/١٠/٢٨ أن لجنة من مجلس الكنائس البريطانى تبارك الصلة الجنسية فى الزواج ولكنها لا تصر على العفة قبل الزواج ولا الالتزام بعده ، وتدعو لتهيئة وسائل منع الحمل للبنات غير المتزوجات ولمزيد من التراخى فى تشريعات الإجهاض . وذكرت مقالات لأسقف انجليزى فى الخمسينات يدعو لإيقاف استعمال كلمة « الله » لمدة جيل من الزمان ، ويقول إن اتصال شاب بفتاة جنسياً بمحبة وبغير إكراه يشكل مبرة .. وذكرت آنذاك قول المسيح عليه السلام « من نظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه » .

واقرأوا معى فى نفس الجريدة قصة الشاب الأمريكى الذى تقدم لمنصب كنسى ثم اتضح أنه مصاب بالشذوذ الجنسى .. ولم ينكر ذلك ، كتبت أمه للجنة المختصة تقول كان بإمكانه أن

يكذب وينافق فقدرُوا فيه فضيلة الصدق . وسأله صحفى ألا يخشى من طبعه هذا على أحداث رعيته إن أصبح قسيساً فقال لا.. إننى لا أبتذل الجنس ، وحسبى أن أعثر على الرجل الذى أستريح إليه فاستقر معه .. أليس هذا عجيباً ؟ بل الأعجب منه أن الشاب حصل على الوظيفة . واستمر هذا الاتجاه حتى طالعتنا مجلة نيوزويك عدد ٢٣ فبراير ١٩٨٧ بمقال اسمه « اللواط بين قسس الكنيسة » .

هذه لمحة عن المناخ الأخلاقى الذى لف الغرب ، فلا غرو أن يترك طابعه على قيم كثيرة منها التشريع ، فتكون هذه التطورات التى منها قوانين الإجهاض الجديدة ، والتى كان من أحدثها عدم اعتبار اللواط جريمة مادام بين بالغين راضيين مستترين .

وتحت ستار حرية المرأة قالوا مادام الرجل حراً فى إتيان الجنس فلتكن للمرأة نفس الحرية .. بدلا من أن يقولوا مادام الزنى غير لائق بالمرأة فهو كذلك غير لائق بالرجل .

وتهافت الشبان والشابات كتهافت الفراش على النار .. وأطلقت الهيئات الطبية كل صيحات الاستغاثة وهى ترى عودة الأمراض السرية إلى بلاد كبريطانيا كانت تظن أنها تخلصت منها

إلى غير رجعة .. وفقدت جراثيمها الحساسية للبنسلين فعاد الزهرى والسيلان بالوفرة التى كانا عليها قبل اكتشاف البنسلين ، مع فارقين خطرين :

الأول : أن سن الإصابة كانت حول الخامسة والعشرين للخامسة والثلاثين فأصبحت بين الخامسة عشر والخامسة والعشرين ، وفى عام ١٩٦٥ كانت ٢٧ بالمائة من الفتيات المصابات دون سن العشرين .

والفارق الثانى : هو أنه فى السابق كان معظم المصابين من الرجال وأقلهم من الإناث فارتفعت نسبة الإناث حتى سادت ثم جاوزت نسبة الذكور ، لم تعد المصابة هى مومس الأمس التى تصيب وحدها العديد من الرجال .. ولكن مريضة اليوم هى الفتاة العادية طالبة أو عاملة أو موظفة .

وفى أمريكا أعلن الدكتور بروان من المركز الأمريكى لمكافحة المرض فى سنة ١٩٦٥ أن ستمائة وخمسين ألفاً من شباب أمريكا ذكوراً أو إناثاً تحت سن العشرين يصابون سنوياً بالزهرى أو السيلان . كما أعلن الدكتور ماكنزى بولوك من جمعية الصحة الأمريكية أن الإصابات شهدت مؤخراً تفاقماً

مروعاً ودعا لإعلان حالة الطوارىء القومية .. والحالة الآن أسوأ بكثير خاصة بعد ظهور وذيوع مرض الإيدز على ما يعلم الجميع.

وزاد الإجهاض وأغلب أحماله من سفاح .. وطغت نسبة ولادات السفاح على الولادات الشرعية فى كثير من ولايات أمريكا ، وقد حضرت مرة مروراً فى جناح الحوامل بإحدى أمهات مستشفيات أمريكا فإذا كل من فى السرائر يقدمن لى بلقب الآنسة فلانة إلا واحدة هى التى قدمت بلقب سيدة .

وما راعنى فى نيويورك إلا مظاهرة من البنات الآنسات ترفع اللافتات وترفع العقائر مطالبة بإباحة الإجهاض .. ونشرت صورتها بالصحف .

كل هذه القرائن تمثل الدوافع والحافز والظمأ إلى التشريعات الجديدة التى تصر على أن الإجهاض مباح كالماء والهواء للسيدات والآنسات على السواء .

***كيف نهتدى للرأى الصواب فى مسألة الإجهاض ؟***

مصادر الهداية فى هذا السبيل ثلاثة وهى :

أولا : وجهة النظر الأخلاقية .

ثانيا : دستور المهنة الطبية .

ثالثا : أحكام الشريعة الإسلامية .

ونفصل هنا الأخلاق عن الدين عمداً فليس كل إنسان بصاحب دين . وقد أباح لنا الدين بحمد الله أن نسلك سبيل الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالتى هى أحسن .. ولا نحجم إذن أن نناقش الأمر مناقشة علمانية عقلانية بحتة .

ننظر علمياً لنشأة الحياة عبر تاريخها المعلوم .. فإذا أرقى صورها الإنسان ، وإذا الذى يميز الإنسان عن سائر الحيوان هو أن الإنسان انفرد بأنه الكائن الوحيد الذى قد تهفو نفسه لشىء فيردها عنه وهى قادرة عليه . تتحرك نوازع الحيوان جوعاً أو ظمأ أو جنساً فيستجيب لها استجابة مباشرة حالما تهيأ له الظرف ..

إلا الإنسان - فركاز إنسانيته فحضارته أن عنصر « كبح جماح النفس » يتغشى حياته .. وبغير كبح جماح النفس يصبح المجتمع الإنسانى غابة وحشية ، وكم من حضارة فرطت فى معنى كبح جماح النفس ويسرت للأهواء والنزوات أيسر السبل فزلت فزالت .. وما حضارتنا المعاصرة باستثناء ، ولو استمر الاتجاه الأخلاقى الذى رسمته فمن المؤكد أن حضارتنا قد غرست فى

جسمها جراثيم فنائها .

ونؤمن بما يردده فلاسفتنا الملحدون من شعارات الحرية والمساواة .. ونؤمن معهم بحق المرأة فى الحرية متكافئة فيه مع الرجل .. بل ونحتكم معهم إليه - من دعوتهم هم ، ومن شعاراتهم هم ، نقول إن بديهيات العدالة والمساواة تقول إن كل علاقة بين اثنين لا تكون نتائجها موزعة عليهما بالتساوى هى علاقة تنبو عن العدل والإنصاف والمساواة .

وقد أطلقوا الجنس للرجل والمرأة على السواء بدافع المساواة .

فهل تحققت المساواة ؟ العكس هو الصحيح .. فلقد اتضح أن المرأة هى الخاسرة على طول الشوط .

إن عُوشرت وهجرت فهى الخاسرة .

وإن حملت سفاحاً وأُجهضت فهى الخاسرة .

وإن ولدت سفاحاً فهى الخاسرة سواء استبقت وليداً بغير أب أم تنازلت عنه لمن يتبناه . هذا حتى بمنطقهم ظلم عظيم .. حتى وإن أعفيناهم من قال الله وقال الرسول . ويصورون أن الشبق

الجنسى ضرورة لا تقاوم .. فكرة العفة عندهم شىء غير علمى ، وبالأمس يسروا التخلص منها بما أشاعوه من أن البكارة تزول بمزاولة أنواع الرياضيات ، وهو عذر لم يعودوا يحتاجون إليه الآن على أية حال .

العفة عندهم شىء نظرى ليس فى المقدور العملى .. ومجتمعاتنا الإسلامية تقدم الدليل القاطع على أنها هى الشىء الطبيعى ، فما زالت نسبة البكارة فى بناتنا قبل الزواج تقارب المائة بالمائة .

والحمد لله إن مجتمعاتنا لديها ما تقدمه للغرب الضال فى ظلماته .. فالفضيلة طب وقائى ولكن الأمر يقتضى أن ينشط المخلصون لمجابهة حركة الإفساد الشاملة الماكرة الهادفة القادرة.. التى تريد أن تقوض أركان المجتمعات حتى تنهار فيسهل عليها وراثتها .. حتى تكون طيعة لتحكمها الفئة التى تحسب نفسها الشعب المختار وأن ما سواها بهائم وعجماوات .

## دستور المهنة الطبية

شهد العقد الأخير نشأة اختصاص جديد بين تخصصات الفروع الطبية .. جاء وسطاً بين فرع طب التوليد وفرع أمراض الأطفال .. وذلكم هو « الطب الجنينى » الذى عنى بالجنين قبل أن يكون وليداً .. ويشرف عليه ومازال فى رحم أمه .. وقد أمكن الوصول إلى تشخيص طائفة من الأمراض التى تصيب الجنين .. وأمكن استنباط علاجات لبعض هذه الأمراض ، وليست كل هذه العلاجات من قبيل التداوى بالعقاقير بل إن منها إجراءات ذات طبيعة جراحية صرفة تجرى على الجنين فى الرحم .

وقد يولد الجنين دون أوانه فسرعان ما يوضع فى حاضنة صناعية تهيىء له الدفء والغذاء والنفس النقى والوعاء غير الملوث .. ولا يزال البحث العلمى يركض وراء اختراع مشيمة صناعية تخدم الجنين المجهض ولو كان صغيرا .

معنى هذا أن الجنين الإنسانى أصبح بين يدى المهنة الطبية زبوناً له حق الزبون وحرمته ومكانته . فكيف يجوز أن المهنة من جانب تسبل عليه الرعاية والعناية والحفاظ ، ومن جانب آخر تستبيح أن تمتد إليه يد الطبيب فتنتزع حياته وتنفذ فيه حكم الإعدام لا لشىء إلا لأنه غير مرغوب فيه ؟

## رأى الإسلام :

حرمة الحياة مقررة فى الإسلام كما هو معروف وينسدل هذا على الجنين . إلا أن بعض السلف الأقدمين من الفقهاء قسموا حياة الجنين قسمين .. يفصل بينهما بدء شعور السيدة بحركة الجنين فى بطنها ويكون هذا عادة فى نهاية الشهر الرابع من الحمل . وتوهم هذا الفريق من الفقهاء أن هذا الإحساس سببه دبيب الحياة فى الجنين .. أو ما عبروا عنه بنفخ الروح .. وأجاز بعضهم إذن إجهاض الجنين قبل نفخ الروح .

كان هذا الحكم إذن دائراً على هذه العلة . إلا أن التقدم الطبى منذ عصرهم وحتى عصرنا الحاضر قد كشف أن إحساس السيدة بحركة الجنين لا ينبىء عن بدء هذه الحركة . فالحق أن الجنين يتحرك من قبل ذلك بزمن طويل ولكن السيدة لا تحس به لأن الكيس المائى الذى يسبح فيه يكون فى البداية كبيراً فسيحاً بالنسبة لجسمه الصغير .. ويمر زمن حتى يكبر الجنين فتستطيع لكماته وركلاته أن تطال جدار الرحم فتشعر بها السيدة بعد أربعة أشهر حملية . بل إن لدينا الآن من الأجهزة ما نسمع به دقات قلب الجنين وهو فى الأسبوع الخامس ولدينا من الأجهزة ما نرصد

به حركة الجنين حتى من قبل ذلك . واستقر علمياً أن الجنين منذ بدايته بيضة ملحقة تشرع فى الانقسام والتكاثر فإنه كائن حى ينمو ويتطور بصورة متصلة ناعمة دائمة مستمرة دون أن يوجد فاصل له قبل وله بعد يتيحان الأخذ بما اجتهد اليه الأقدمون .

العلة إذن تغيرت فلابد أن يتغير الحكم ، وعلى ما أفضى إليه التقدم العلمى تتأسس حرمة حياة الجنين فى كافة أدوارها .

وهذا الرأى الحديث الذى وصل إليه العلم بالملاحظة المباشرة . وصل إليه فريق من الفقهاء القدامى عن طريق المنطق والاستدلال ، فقالوا إن الجنين حتى قبل نفخ الروح فيه حياة محترمة هى حياة النمو والإعداد فلا يجوز إسقاطه ..

ومن هؤلاء الإمام الغزالى ، فقد عرض لهذه المسألة وفرق بينها وبين العزل الذى كان يمارس لمنع الحمل .. فقال « وليس هذا ( العزل ) كالإجهاض والوأد .. لأن ذلك جناية على موجود حاصل .. وأول مراتب الوجود أن تقع المادة فى الحمل وتختلط بالبويضة وتستعد لقبول الحياة .. وإفساد ذلك جناية ، فإن صارت نطفة فعلقة كانت الجناية أفحش . وإن نفخ فيه الروح واستوت الخلقة ازدادت الجناية تفاحشاً ، ومنتهى التفاحش فى

الجناية بعد الإنفصال حياً . هذه مسألة ..

المسألة الأخرى هى أن الفقهاء - وأقول أيضا الأطباء - قد أجمعوا على أن السيدة إن كانت مصابة بما يجعل استمرار الحمل خطراً على حياتها ضحى بالحمل استبقاء لها ، لأنها هى الأصل والجنين فرع . على أن الأعذار الأخرى التى وردت فى السابق لتبرير الإجهاض كأن يكون لبن الأم ضعيفاً والزوج فقيراً غير قادر على أن يستأجر المرضع ، أو أن تخشى الأم أن تحمل أثناء الرضاع فترضع وليدها لبن الغيل أى لبنها وهى حامل ، فهذه أسباب زالت ظروفها فى زمننا هذا الذى تهيأت فيه وسائل منع الحمل وتهيأ اللبن الصناعى للإرضاع ومستحضرات المقويات والفيتامينات للمرأة حاملا أو مرضعاً .

والحق أن الشريعة الإسلامية لم تقصر فى التدليل على حرمة الجنين وصيانة حقه ، وحسبنا فى هذا أن نورد الشواهد الأربعة التالية .

**أولا** : إذا توفى رجل عن زوجة حامل فإنه لا يجوز التصرف فى تركته قبل أن يرصد نصيب الجنين حتى يولد .. وعلى الورثة أن يتعهدوا إن وضعت الزوجة أكثر من جنين أن

يردوا مما أخذوه نصيب الجنين الثانى أو من زاد على ذلك إن وضعت أكثر .

**ثانيا** : إذا أجهضت المرأة جنيناً فى أى دور .. وبدا على هذا الجنين أية أمارة من أمارات الحياة كعطسة أو سعلة أو تحريك أصبع .. فإن هذا الجنين يرث أيا من مورثيه الشرعيين مات بعد بدء الحمل .. ثم إذا مات هذا الجنين آلت تركته لورثته الشرعيين .

**ثالثا** : إذا حكم على امرأة بالإعدام وكانت حاملا تأجل تنفيذ الحكم حتى تضع وليدها وفى رأى آخر حتى تتم رضاعه . وقد أجل النبى صلى الله عليه وسلم رجم الزانية الحامل ، مما يدل على أن الحمل السفاح لا يبرر العدوان على حياة الجنين وأن لهذا الجنين حق الحياة .

**رابعا** : شرع الإسلام عقوبة مالية على إحداث الإجهاض . اسمها الغرة إن نزل الجنين ميتاً أو نزل قبل تمام الشهر الرابع . والغرة نصف عُشر دية البالغ . فإن نزل بعد الشهر الرابع حياً كانت الغرامة دية كاملة . وتدفع لورثة الجنين الشرعيين .. فإن كان منهم من ساهم فى إحداث الإجهاض دفع نصيبه من الغرامة

ولكن حرم من نصيبه من التعويض . والتعويض واجب وإن لم يكن هناك قصد .. فإن عمر دعا امرأة فخافت وقالت : ويلها ما لها ولعمر .. وكانت حاملا فأجهضت فى الطريق ، واستشار عمر فأشار عليه على بن أبى طالب قائلا إن ديته عليك لأنك أفزعتها فألقته . وامتثل عمر .

وتتعدد الدية بتعدد الأجنة . ودفعها لا يعفى الجانى من العقوبات التعزيرية الأخرى التى يراها القاضى إن تبين أن العدوان مقصود ، سواء كانت مالية أو غير ذلك .

وتغطى الغرة الحمل من أبكر أدواره .. بل قالوا إن المرأة لو ألقت مضغة أو دماً أو غير ذلك مما لو عرض على ثقات شهدوا بأن فيه خلقاً خفيفاً أو مبدأ خلق آدمى لو بقى لتصور فالجانى مسئول أيضا .

وبديهى أن كل هذه حقوق فرعية ، تالية للحق الأصل وهو حق الحياة . وهو الذى يجب أن نصونه للجنين .. باسم الطب ، وباسم الخلق ، وباسم الله .

لكنه الإنسان فى غلوائه ضلت بصيرته فجن جنونا
ويحى لمنتحر كآن بنفسه من نفسه حقد الحقود دفينا

اعتد أسلحة الدمار فما رعت طفلا ولا امرأة ولا مسكينا

واليوم مدّ يديه للأرحام تقتلعان منها مضغة وجنينا

قد صيغ من نور وطين فانبرى للنور يطفئه ولبى الطينا

ما أضيع الإنسان مهما غذّ فى سبل العلوم إذا أضاع الدينا

# تقدم المرأة فى السن من منظور إسلامى

التقت حسناء فى شرخ الصبا
بعجوز آدها عبء السنين
تلك فى الشرق على عرش الضحى
وذه فى الغرب بين الآفلين
دلت الحسناء بالحسن وكم
أشعل الحسن غرورا وفتون
وجهها كالصفحة البيضاء ما
سطرت فيه يد الدهر غضون
وعلى الوجه جبين أملس
وعلى تلك تضاريس جبين
قالت الحلوة ما أجملنى
قالت الأخرى ولكن تجهلين
خلتنا ثنتين . . . بل واحدة
فأنا أنت ولكن بعد حين

وعلى هذا فلا يظنن ظان مهما بلغ من العمر أو لم يبلغ من العمر أن الحديث عن المسنين هو حديث عن الآخرين ، بل هى أدوار وأطوار يمر بها كل من نسأ الله له فى الأجل ومد فى العمر ، ولا بد من أن يكون الاهتمام بالحديث عن المسنين اهتماما شخصيا لا غيريا ، فإن قصير النظر من شغله شبابه عن هرمه وحجبه يومه عن غده وحاضره عن مقبله .

ولقد صدر إلى الأمر - فصدعت - أن أتناول موضوع المسنين من ناحيته النسائية ولعل التكليف خاطب فيّ الطبيب لا الأديب وفى مطلع العمر أزمعت أن أكون الكسائى فأفضى بى الاختصاص الطبى أن أكون النسائى ، وما أرى فى ذلك بأسا فهن شقائق الرجال ويمتزن بأن الجنة تحت أقدامهن وبوصية النبى عليه الصلاة والسلام أنه « ما أكرمهن إلا كريم وما أهانهن إلا لئيم » .

والموضوع الموكول إلينا غريب بعض الشيء ... تقدم المرأة فى السن ومظاهره العضوية والنفسية .. وغنى عن البيان كذلك أن الرجل تتقدم به السن فيكون لذلك آثاره العضوية والنفسية كذلك ، ولهذا أحسب أن المطلوب أن أبحث ما تنفرد به النساء

عن الرجال فى هذا الشأن . وأبدأ بأن أميط لبسا يقع فيه الكثيرون كلما سمعوا عبارة سن اليأس ... وما دمنا نتوخى المنظور الإسلامى فاليأس حرام ، وإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون . فمن أوحت إليه هذه التسمية بمعانى اليأس وما يكتنفه من كآبة وقنوط فقد خانه التفسير وانحرف عن المقصود ، فإذا قلنا إن امرأة أدركت سن اليأس فإنما نعنى أن حيضها انقطع وإلى غير رجعة وأصبح ذلك أمرا فى حكم المؤكد مقتبسين فى ذلك التعبير القرآنى { واللاتِى يَئِسْنَ مِنَ المَحِيضِ } ، دون أن يعنى ذلك أنها عزفت وانكمشت وانزوت وودعت الأمل والعمل .

وتكاد تكون أنثى الإنسان فريدة بين إناث الثدييات الأخرى فى أن حياتها الحيضية أى الإنجابية لا تستغرق كل حياتها وإنما تتوقف فى مرحلة معينة .. ولا يشاركها فى ذلك إلا أنواع نادرة من الأفيال وأنواع نادرة من الحيتان . . أما البقية فتظل منجبة طيلة حياتها ، على حين أن من العادى أن تعيش المرأة ثلث حياتها أو أزيد بعد انقضاء فترة الخصوبة ونهاية الحيض بسن اليأس ، وواضح أن سنة الله فى خلقه رسمت أن تكون الوظيفة

الإنجابية للمرأة قصرا على مرحلة من العمر لا العمر كله .

ولكن لماذا كان للنساء سن يأس من دون الرجال ؟ لأن اليأس يأس من الحيض ولا يحيض الرجال . ذلك بأن الإنجاب يبدأ بالحمل ، وبدء الحمل التحام منوى من الرجل ببييضة من المرأة ، ولما كان جنين الإنسان ضعيفا وثمينا معا كان لا بد له من مستقر ومستودع شرف الله الأم بأن جعله رحمها . وبينما يصنع الرجل منوياته جديدا بجديد ، فإن الأنثى تولد وفيها كل رأسمالها من البييضات مخزونة فى المبيضين تعدادها ربع مليون إلى نصف مليون .. فإذا آذن سن البلوغ انطلقت من المخ سلسلة هرمونية دورية أيقظت كل دورة عددا من البييضات حتى تنطلق إحداها من محبسها فى المبيض عسى أن تلتقى بمنوى صاعد يلتحمان فيبدآن حملا ... وهى صحوة مصحوبة بإفراز هرمونى من البييضة يهيىء بطانة الرحم لاستقبال الجنين المرجو ويشيد له صرحا رحميا يؤويه ، فإذا لم يحدث الحمل انطفأت البييضات وغاض إفرازها الهرمونى وإنهار الصرح الرحمى ولفظه الرحم إلى الخارج دما مسكوبا وفتافيت مفرية هى التى تعرف بالطمث أو الحيض ، ثم تبدأ دورة تالية ثم تالية وهكذا ..... عماد كل منها

إباضة إما أن يعقبها حمل وإما أن يعقبها حيض ، حتى ينتهى هذا الدور من حياة المرأة ويتقاعد المبيضان فما من بيض وما من حيض وتطوى صفحة وتبدأ أخرى .

على أن هذه الهرمونات التى كانت تفرزها بييضات المبيض ما كانت آثارها قاصرة على إعداد الرحم فحسب ... ولكنها تدور فى الدورة الدموية فتكاد تؤثر على أجهزةالجسم جميعها .. آثارا نستوضحها لو عاينا طفلة تنمو وتدخل مرحلة البلوغ ... الإحساس بالأنوثة ، الاهتمام بالهيأة والزينة ، الخجل والخفر والحياء ، نمو الثديين ، توزيع الشحم تحت الجلد بحيث يعطى الهيأة الأنثوية المعروفة ، اتساع الحوض ، صلابة العظام ، هذا عدا الآثار غيرالسطحية الكامنة فى كيمياء الجسم أو فى النمط العاطفى عدا شئون الحمل والإنجاب والإرضاع بطبيعة الحال . فإذا استقامت حياة المرأة على هذه الهرمونات طيلة عمرها الإنجابىّ ثم كف المبيضان عن إفراز الهرمون الأنثوى أحست المرأة بنوع من سلب العطاء ... وتكون لذلك أعراض جسمية ونفسية لا تتشابه فيها النساء جميعا . فالتوقف التدريجى للنشاط المبيضى أهون من التوقف الحاد ، وطبائع النساء كطبائع الرجال

ليست سواء فى التصدى للجدائد العارضة أو التأقلم مع الظروف الجديدة ، وبينما تجتاز نصف النساء هذه المرحلة بدون أثر يذكر فإن النصف الآخر يتعرض لمتاعب صادقة تتراوح بين الطفيف الذى يكفى فيه التطمين والتشجيع إلى الشديد الذى يستدعى فوق ذلك علاجا يصفه الطبيب .

وأول مظاهر سن اليأس بطبيعة الحال أن يحل موعد الحيضة فلا تجيء ... وقد تظن المرأة أنها إذن حامل وليست بحامل ، ويكون النبأ عند الطبيب أو عند حدوث الحيضة ولو بعد حين . وقد تظن المرأة كذلك أنها بتباعد ما بين حيضاتها أصبحت بمأمن من الحمل وما هى بمأمن ... فمن تباطأت حيضاتها بالشهرين والثلاثة لايقال إنها قد يئست من الحيض بعد ولا يقول الطب إنها بلغت سن اليأس ... فقد تبطيء الساعة ولما تتوقف فتظل قادرة على الرنين ... ولهذا فالعرف الطبى يجرى على ضرورة انقطاع الطمث سنة كاملة لتعتبر السيدة آيسة .

ويفضى بنا هذا إلى سؤالين ، الأول متى سن اليأس ، والثانى ما أقصى سن يمكن أن تحمل فيه المرأة حملا جديدا . أما سن اليأس فمداه واسع واختلافه كبير بين النساء فقد يكون فى

الثلاثينات الباكرة وقد يكون فى الخمسينات المتأخرة . ولهذا فقد اختلف كذلك طبا وشرعا وقانونا فى أقصى سن للحمل . ومن المعروف أن الخصوبة تقل فى أواخر الثلاثينات فإذا بلغت المرأة الخمسين اقتربت الخصوبة من الصفر ... ومع ذلك فقد وجدت من حملت بعد الخمسين ومنهن إحدى مريضاتى وكان حملها الأول بعد الخمسين ، ووجدت من حملت بعد دخولها سن اليأس بفترة كافية ، وقد أحجم القانون البريطانى والقانون الأمريكى عن تحديد سن يستحيل الحمل بعدها ، وورى عن عائشة رضى الله عنها قولها « لن ترى المرأة فى بطنها ولدا بعد خمسين سنة » ، وفى كتاب المغنى لابن قدامة رأى بأنها إن كانت من نساء العجم فخمسون وإن كانت من نساء العرب فستون ، والخلاصة أنه فى أحوال نادرة تحدث فى الجسم تغيرات تفضى إلى أن يقذف المبيض بعد طول العهد ببيضة كمثل ومضة البرق غير المتوقعة ، فيصادفها منوى يلقحها فيكون حمل جديد ... ومثال ذلك فى كتاب الله عن زكريا عليه السلام { هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ * فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ

مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِى غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الكِبَرُ وامْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ } ( آل عمران ) . أما سارة زوجة سيدنا إبراهيم فكانت أكبر سنا ولهذا أشد عجبا ... { وامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وهَذَا بَعْلِى شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ } ( هود ) ... وهى التى حدث عنها فى موضع آخر { وبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ، قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الحَكِيمُ العَلِيمُ } ( الذاريات ) ، وسبحان من إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون .

ونعرض هنا لحكم شرعى يترتب على إياس المرأة ذلك هو عدة المطلقة كما فصله قول الله { واللَّائِى يَئِسْنَ مِنَ المَحِيضِ مِن نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهرٍ واللَّائِى لم يَحِضْنَ .

وأُوْلاتُ الأحْمَالِ أجَلُهُنَّ أنَ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ } ( الطلاق ) . فبينما تعتد الحائض بالقروء تعتد الآيس بالأشهر إذ لا قروء لها . وفى كتب الفقه آراء كثيرة عن مدة عدة المرأةالتى تنقطع عادتها أشهرا ولكنها تعود دون أن تتم سنة من جفاف الطمث ، وهل تعود إذن لحساب القروء أو تعتد تسعة أشهر أى مدة حمل ... والذى نرتاح له مما ورد الرأى الذى يقول إن هدف العدة التأكد من براءة الرحم وهذا تكفى له الأشهر الثلاثة . ولنا رأى فى التأكد من براءة الرحم سواء فى الآيسة ذات الأشهر أو الحائض ذات القروء أو الحامل التى أجلها أن تضع حملها ... ففى وسعنا الآن بجهاز الموجات فوق الصوتية أن ننظر إلى داخل الرحم لنتأكد من خلوه من جنين ... ولقد يحدث أن تجهض حامل فيظن أنها بلغت أجلها بينما فى رحمها توأم باق لم يجهض فهى لم تضع إذن حملها كاملا بعد ... وحيثما تيسر جهاز الصورة الصوتية نرى من الواجب استخدامه لا بديلا عن العدة لأن فيها نصا ، ولكن برهانا وتأكيدا . ويذكرنى هذا بنكتة الطبيب الذى أجهض امرأة من جنين ، فلما عادت إليه بعد أشهر تشكو عدم عودة الحيض وجد فى بطنها انتفاخا ووضع مسماعهُ فإذا التوأم الأديب ينشد فى

جذل :

نجانى ربى من موت فبخ وبخ وبخ وبخ

قصد الدكتور إلى الإجها ض فأخطأنى وأصاب أخى

ثم يبقى الحكم الشرعى الآخر الذى يعطى كبيرة السن قدراً من التخفف فى الزى والهيأة مقارنة بصغيرة السن ، والذى ورد فى قوله تعالى { والقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِى لا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ، وأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ } ( النور ) ولنا إلى موضوع الزى عودة عما قليل .

ونعود لذكر الأعراض العضوية الشائعة لدى سن اليأس .. ومعظمها مرده إلى الحرمان من هرمون الاستروجين الذى كان يفرزه المبيض . وأشيع هذه الأعراض ما يسمى بالهبات الساخنة .. إذ تعترى السيدة نوبات من تمدد الأوعية الدموية فى الجلد تحس معها السيدة بصهد شديد وعرق تصفه كماء ساخن سكب على وجهها ورقبتها وسائر جسمها .. ولما كان ذلك مصحوبا باحمرار فإنها تحس بحرج شديد إن رآها أحد خاصة إن كان الجو باردا لا

يستقيم مع هذه الصورة . ويشرح الطبيب ويطمئن ، وتظل القاعدة أننا مدينون لمرضانا بالإبراء والتخفيف ، فإن استدعى الأمر عالجنا بهرمون الاستروجين لأجل محدود وبمقدار محسوب آخذين فى الاعتبار ما لهذا العلاج من فائدة ولكن كذلك ما يكتنفه من محاذير .

ويؤدى نقص الاستروجين كذلك إلى خلخلة استمساك العظام بما فيها من كلس ... وبمرور السنين تصبح العظام أقل صلابة وأكثر قابلية للكسر عند الوقوع أو الإصابة ... ومن الوارد الشائع أن عظام الفقرات وهى من العظام الاسفنجية تنوء بثقل الجسم عليها فتنكبس وتنضغط مما يؤدى إلى نقص فى طول العمود الفقرى يؤدى إلى قصر قامة السيدة عما كانت عليه وربما لاحظت أن فساتينها طالت عليها . ولما كان هذا القصر فى العمود الفقرى وليس فى عظام الفخذ والساق فينبغى إذن الاستفادة الذكية من هذه الحقيقة فى تصميم الزى . لقد درجت أغلبية النساء على ارتداء الفستان المضموم من الوسط بخنصرة يعلوها الصدر ويسفلها النصف الأسفل من الجسم . فإذا أصرت السيدة على نفس الطراز حتى بعد حدوث هذه التغيرات ظهر أن

نصفها الأعلى قصير عن المألوف فكأنما انبعجت السيدة من فوق خط الوسط واكتسبت عيباً لا يستره إلا الثوب المسدل الواسع الساتر بغير خصر ولا حزام ... خاصة وأن من المألوف كذلك فى هذه السن أن يكون وزنها قد زاد وداهمتها السمنة ما لم تأخذ بالوقاية فى الطعام والرياضة . والأعراض النفسية لدى هاته السيدات ربما كانت أشد رهقا من الأعراض العضوية . ومن النساء من لا تصادفها البتة ، ومنهن من تكاد تفسد حياتها ، وبينهما مدى واسع .

ويفاقم الأعراض النفسية من قلق وعصبية واكتئاب أن تكون لدى السيدة خلفية من تزعزع الثقة وفراغ فى الوقت وفى الفكر يخلى بينها وبين الوساوس ... فهى تدرك أنها كفت عن الإنجاب فتقول ومن أدرانى فلعل زوجى يريد المزيد ، وأنها فى أواسط العمر فلعل الزوج الذى ما زال قسيما وسيما يحن إلى النضارة والشباب ، وقد يعتريها ما يعبر عنه الأطباء بمرض العش الخالى ، فقد كبر الأولاد وتركوا البيت عملا أو زواجا وخلا البيت عليهما من جديد ، وليس الشوق إليهم هو الذى يعذبها ولكن شعورها بأنها زائدة غير محتاج إليها بعد أن كانت فى الزمانات

الخوالى هى الكل فى الكل وصاحبة الأمر . فإذا ذكرنا فوق ذلك أن سن اليأس يحل وقد وصل الزوج إلى مرحلة من حياته زادت فيها مسئولياته وانشغالاته العملية لدرجة تحجبه عن رعاية الزوجة والاهتمام العاطفى بها وأنها فى ظنه ببلوغها سن اليأس وبطول العشرة أصبحت فى غنى عن الكلمة الحلوة والمجاملة الرقيقة واللمسة الحانية ، فانعكس ذلك عليها بصورة سلبية . ويخطىء من يظن أو تظن أن سن اليأس أو أى سن ينبغى أن يخرج الجنس من دائرة الحياة أو يجعله عملا لا يليق ، فلا ينبغى إسكات هذا الهاتف الذى جعله الله من آياته ، وإن عرضت صعوبات كما يحدث أحيانا كان من الحق ومن الواجب التماس الطب لها ، وعلى الزوج أن يذكر أن الجنس ليس مجرد قضاء شهوة ولكنه كذلك ممارسة مودة ورحمة وحسن تلبس مندوب ومحمود ، ولله در نبينا عليه الصلاة والسلام حين قال " لا يقعن أحدكم على امراته كما يقع البعير " .

ولعل خير وقاية لأعراض سن اليأس تكمن فى هذا السمت العام الذى يربينا عليه الإسلام وهو أن الإنسان سيسأل عن عمره فيم أبلاه ... ينبغى أن يكون لمرور الوقت مردوده فالوقت هو

الحياة والوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك . وإذا كان سن اليأس قد أمن السيدة من الحمل وأخلى حياتها من الانشغال بأمور الصغار فليس معنى ذلك أن تسلم نفسها للفراغ وتدفن فيه ما بقى من عمرها . لا بد من ملء الحياة بالحياة طول الحياة ... " فإذا جاء يوم القيامة وفى يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن يغرسها فليغرسها " ... وممن أعرف سيدة عجوز أمريكية فى مدينة سياتل كانت مقعدة من مرض المفاصل ، وصادفتها طبيبة مسلمة ظلت بها حفزا وصبرا حتى تحركت ومشت ، وخلال ذلك سمعت بالإسلام فقرأت ودرست وأشهرت إسلامها ، وكان الدرس أن هذه السيدة قد قامت بأعظم أعمالها وهو إسلامها وهى فى سن السادسة والثمانين .

لقد عرف الإسلام الباكر المرأة نصيرة وشهيدة ومهاجرة ومقاتلة وداعية ومربية ... وعرفها العالم اليوم وزيرة ورئيسة ومكتشفة ومخترعة وكاتبة ومصلحة ...الخ .

وأنظر إلى الساحة الإسلامية اليوم فأجدها شديدة الفقر فى العاملين والعاملات مما لا يعفى قادرا أو قادرة من العطاء على قدر الطاقة .. وإذا كان حديثنا عن سن اليأس فأخشى أن تكون

الأمة الآن نساؤها ورجالها مهددة بعصر اليأس .

ثم نستطرد من سن اليأس إلى مرحلة الضعف والشيخوخة ... وهى مشكلة متزايدة متسارعة فى العالم كله نظرا لما أتاحه التقدم العلمى والطبى من إطالة معدل الأعمار إلى سن كبيرة . ولكن وطأة هذه المشكلة على النساء أشد منها على الرجال ... لا لأن الرجال أقوى ولكن لأن العكس هو الصحيح . إن النسبة الجنسية الأولية لدى الإخصاب نحو مائة وثلاثين ذكرا لكل مائة أنثى ... ولكن الفاقد من الأجنة الذكور خلال فترة الحمل عن طريق الإجهاض التلقائى هو واكبداه أكثر فى الأجنة الذكور عن الإناث ، حتى تصبح النسبة الجنسية الثانوية عند الميلاد حوالى مائة وسبعة من المواليد الذكور لكل مائة من الإناث ... وحتى فى السنة الأولى من العمر يكون الذكور أكثر هلاكا لتكون النسبة فى سن عام مائة وثلاثة من الذكور لكل مائة أنثى ... وتعتدل النسبة عند البلوغ فتكون مائة لمائة ... ولكن الرجال مع ذلك أضعف فإن النسبة الجنسية الثالثة فى أواخر العمر تزيد فيها النساء على الرجال ، وفى فئات العمر الواحدة تكون نسبة الأرامل من النساء أعلى من نسبة الأرامل من

الرجال ... فالأنثى حيوياً لا عضلياً هى الأمتن والأرسخ ومعذرة لغرور الرجال . ونطالع فى المجتمعات الغربية صورة أليمة فى هذا النطاق ... وهت الروابط الأسرية التى تمنع الأسرة من الانشطار .. وأصبح على السيدة التى انفض عنها أولادها ومات زوجها إما أن تعيش وحيدة وإما أن تودع بيتا للعجائز وكلا الأمرين مر . إن مشكلة الشيخوخة ليست مشكلة طبية فللشيخوخة أمراضها الباطنية والجراحية وكلاهما فى نطاق الطب ويندر أن يكون السن مهما تقدم مانعا من إعطاء المخدر وإجراء الجراحة إن كانت ضرورية ... ولكن المشكلة القصوى هى المشكلة الإنسانية ... الفراغ القاتل والوحشة الرهيبة حتى ليمضى دهر دون مجرد تبادل الحديث مع أحد ومن الشكاوى المتكررة " إن حنجرتى صدئت يا دكتور من قلة الكلام " ... ثم العجز عن قضاء الحاجات الضرورية ، وعن النظافة ، والإهمال فى الغذاء والكساء ، فإذا أضيف على ذلك ضعف الذاكرة وخفوت الانتباه وصعوبة الحركة كان الأمر أليما .

هذا هناك فماذا لدينا هنا ... أخشى أن يكون اختلاف الصورة مرده تأخرنا عنهم زمنيا بينما نحن إليهم متجهون .

وأخاف أن تكون تقاليدنا بقايا أمس لا منهاج غد . نسمع قول ربنا { وقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وبِالوَالِدَيْنَ إِحْسَاناً . إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أو كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ ولا تَنْهَرْهُمَا وقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً * واخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيراً } ( الإسراء ) ونسمع أمثاله فى القرآن الكريم . ونسمع قول نبينا " رغم أنفه رغم أنفه ... من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة " ( مسلم والترمذى ) ... ونسمع أمثال ذلك فى الحديث الشريف . هذا كتاب الله وسنة رسوله ولكن هناك سؤالا وارداً ومطروحا وهو ما موقع كتاب الله وسنة رسوله من حياة المسلمين الواقعية والعملية فى يومنا هذا . أليست الهوة كبيرة بين واقع الإسلام وواقع المسلمين الآن ؟ ألم يأمرنا ربنا بالكثير فأهملناه وينهنا عن الكثير فأتيناه ؟ ألم يمتحنا بالفقر والغنى فرسبنا فى الامتحانين ؟ ألم يجعلنا أمة واحدة وجسدا واحدا فتقوقع كل فى قبيله وكل بما لديهم فرحون ؟ ألم يأمرنا بالإيثار رغم الخصاصة فأبنا بالأثرة فى غير خصاصة ؟ ألم يجعل العزة للمؤمنين فرضينا بالذلة حرصا على حياة أو تخمة أو لذة أو جاه ؟ وفرارا من

مخمصة أو ابتلاء أو شهادة ؟ ولا أطيل ... وإنما لا يخفى على بصيرة أن الاتجاه المادى الطاغى يوشك أن يطوينا كما طوى غيرنا وإنا بهم لمفتونون . وظهرت بوادر ذلك فى الموضوع الذى نتناوله فدعونا لا نشرد عنه . كثيرة هى المرات التى أعالج فيها عجوزا بالمستشفى فإذا حان وقت خروجها تقاعس ابنها وقال ماذا أفعل بها يا دكتور . نقرأ فى تراثنا عن الرجل الذى كان يحلب غنمته ويقف بالحليب لدى أبويه لا يوقظهما حتى يقوما فيسقيهما قبل أن يسقى أولاده ... هذا مثال لقيمة من القيم .. القيم اليوم تكلفنا من راحتنا أو متعتنا أو مزاجنا فلنتخل عن القيم . ويكون الأمر الطبيعى أن تكون العجوز عبئا فلماذا نحتمله ونصبر عليه ؟ نحن اليوم نريد الجنة بغير ثمنها ... الفقير يريدها مجاناً والغنى يريد أن يعطى من ماله لا من ذات نفسه ... أما الاستمساك بالقيم والصبر على تكاليفها فلا ... والموضوع غير منبت عن النسيج الاجتماعى العام . فالغنى الذى يبنى عمارة يكون اعتباره الأوحد كم ستدخل إليه من مال ... ولكن كم منهم يسعد بأن شقته ستعين على تكوين أسرة واستقرارها وإعطائها السكن والسكينة ؟ كم منهم يفكر فى توسعة الرسم واختصار

الإيجار عسى أن يكون فى قدرة الساكن أن يؤوى إليه أما عجوزا ؟ بل عشنا وقرأنا فى الصحف عن الطالب الذى قتل والديه والشاب الذى ضرب أمه والموظف الكبير الذى ترك أمه بلا مأوى حتى أجبرته الشرطة على قبولها إجبارا ... لم تصبح القيم محور تربيتنا بل المنفعة والأنانية واسمعوا منى هذه القصة : كنت أحاول أن أرأب صدعا فى أسرة عربية مسلمة بين شاب ووالديه ، وخلال النقاش قال الشاب إننى غير مدين لهما لا بالعطف ولا بأى شيء يا دكتور ... لقد تزوجا فقررا أن يكتفيا بولدين وأجهضا ما تلا ذلك من أحمال ... ولولا أن الصدفة وحدها جعلتنى الثانى لكان مصيرى حكم الإعدام الذى نفذاه فيمن جاء بعدى من أجنة ... لقد أنجبا من منطلق أنانى لإشباع غريزة الوالدية وليس عن حب لى بالذات فلست خيرا ممن أتوا بعدى . ولقد رأيت عروسا رفضت تماما أن تساكن حماتها العاجزة ... وتتبعتها حتى تزوج أبناؤها جميعا وأصابها الهرم والعجز فما منهم من قَبِلَ أن يؤويها فى بيته ... والجزاء من جنس العمل ... وكما تدين تدان . وما يَصنعه حاضرك يصنع مستقبلك .

ولئن كنت شبه يائس من انصلاح حالنا وانعتاقنا من المادية التى سيطرت علينا وإحساسى إحساس من يؤذن فى مالطا ، لقد وجدت أقل القليل أن أدعو أن تهتم الحكومات بشئون الشيخوخة أعظم اهتمام وإن لم يكن لهذا مردوده الإيجابى على الإنتاج ولا على الدخل القومى ... ومن الأسف الشديد أن معيار النجاح أصبح الدولار والدينار لا توقير الإنسان والحفاظ على كرامته وراحته وإنسانيته .

وما دام وضعنا العالمى الآن وضع التابع لا المتبوع ووضع المغلوب لا الغالب ووضع العالم الثالث لا العالم الأول ، فلأحذر الآن من بدعة جديدة حتى نأخذ أهبتنا لها قبل أن تشيع وتنتشر . ولقد وردت فى كتاب l' avenir de medcin الذى ألفه المفكر الفرنسى أتايّ ... ودعواه أن الآلة البشرية إن أدركت وقتا يكون فيه استهلاكها أكبر من إنتاجها فقد أصبحت خسارة وعبئا ظالما على الشريحة المنتجة فى المجتمع وأصبح واجبا عليها أن تخلد إلى الموت من أجل الصالح العام . أى أننى بدلا من أن أعيش بشعار أعطى وأنا قادر فإذا عجزت حملنى المجتمع ، يكون الشعار أعطى وأنا قادر فإذا عجزت قتلونى ... فأين هذا من

عبارة عمر بن الخطاب عن يهودى فى كنف الإسلام : أخذنا منه الجزية صغيرا فكيف نتركه يتسول كبيرا ... افرضوا له من بيت مال المسلمين .

وبعد ...

فقد انشعب بنا الكلام أحاديث والشيء بالشيء يذكر ... والحديث عن المسنين ليس حديثا عن المسنين ولكنه حديث عن كل واحد وواحدة منا عندما نسن ، ومشكلتهم لا تحل بالمال ولكن أساس حلها الحب ، وهى كسائر مشكلاتنا على كل صعيد لن تنفرج إلا إن اعتنقنا القيم التى ركزها الله فى الإنسان فسجدت له من أجلها الملائكة ...

وأسأل الله ألا تكون هذه الخواطر طرباً يعقبه استرخاء ، أو مسرحية يسدل عليها ستار أو كلاماً لا يصدقه عمل ... فاسعوا بها إلى أهل العمل وعسى أن يستمعوا القول فيتبعوا أحسنه .

# فى إطلاع الجنس على عورة الجنس الآخر فى الممارسة الطبية

كان السلاح الطبى لجيش رسول الله صلى الله عليه وسلم مكوناً من طائفة من السيدات المؤمنات ذوات البصر بالتطبيب أطلق عليهن اسم الآسيات : فكن يخرجن مع الجيش ومعهن أدوات العلاج ، وربما ضُربت لهن الخيام على حافة ساحة المعركة فكأنها ما نسميه اليوم مستشفيات الميدان .. فإذا سقط الجريح حملنه وطبَّبْن جراحه فى أى مكان من جسمه كانت ، واستقر ذلك منذ بَدْرٍ وأُحُد دون أن يثير جدالا أو خلافاً ، ومنهن من بَرَعْنَ فى أداء الخدمة ، بل منهن من جاوزت العمل الطبى إلى العمل القتالىّ المباشر كنُسيبة بنت كعب التى قاتلت فى أحد وأشاد بها النبى صلى الله عليه وسلم .

ذلك بأن أمر العلاج أمر ضرورة .. ولئن بيّن التشريع أحكام العورات فى الرجال والنساء ، لقد كان جلياً أن داعىَ العلاج هو

استثناء من القاعدة العامة .. ولم يجدوا فى هذا الاستثناء حرجاً ولا غضاضة ولا مجافاة للدين ، فلم يصروا على أن يجعلوه مجالا للحرج أو الاحتجاج .

وعلى ذلك جرى الفقه حتى الآن .. تظلّ عورة الرجل حراماً على الرجل والمرأة .. وتظل عورة المرأة حراماً على الرجل والمرأة كليهما .. ولا ينحسر هذا التحريم إلا فى شأن العلاج ومقام الطبابة ، وطالما توفر هذا الشرط أى الحاجة الطبية وتوفرت تقوى الله وصلاح النية فلا إثم ولا بأس .

ويلتبس الأمر على بعض الإخوة المسلمين فيعبّرون عن قلقهم من ذلك فى حقل أمراض النساء والتوليد بالذات . ولكن الناظر إلى المهنة الطبية نظرة البصير ، والناظر إلى الشريعة الإسلامية نظرة البصير كذلك ، يستطيع أن يجد فى كلٍ ما يرفع عنه إصْرَ ذلك الحَرَج . ذلك بأنّ بَدَنَ المرأة عورة كله إلا وجهها وكفاها .. فإن تركنا تخصص أمراض النساء والتوليد جانباً فماذا عن الباطنىّ الذى يفحص الصدر والبطن والظهر والأطراف .. وماذا عن الجراح الذى قد يتناول الثديين بالجَسِّ والحسِّ ليطمئنَّ إلى خلوهما من وَرَمة قد تكون سرطانية ، وما الفرق فيما تقع عليه

العين بين عملية البواسير أو النواسير فى الشرج وعملية رَتق العِجان الممزق بعد الولادة ؟

الحق أن فى العمل الطبى اعتبارات خاصة لا تكمن إلا فيه ، فالجسم فيه تركيبٌ وتشريح وتكوين سَوِىٌّ أو غير سَوِىّ ، ولقد يكمن المرض فى جزء دون جزء أو يحل جهازاً فى الجسم فينعكس على جهاز آخر أو على الجسم كله .. وينظر الطبيب إلى الجسم نظر المهندس إلى البناء أو الميكانيكى إلى الماكينة ، ولا يعود البصر - ولا البصيرة - يترجم الجسم إلى فتنة أو عورة أو غواية أو إغراء كما هو الحال خارج الممارسة الطبية ، وعملية إعداد الشاب والفتاة ليكونا طبيباً وطبيبة تسبكهما فى هذا القالب الحِرَفىّ الذى قد لا يراه من لم يكن من أهل المهنة ، يبدأ ذلك من أول الطريق خلال دراسة تشريح جسم الإنسان وتركيبه ووظائف أعضائه وتداخل هذه الوظائف واشتباكها ، ثم فى باقى الطريق فى دراسة الإنسان وكيف يصح وكيف يمرض وكيف يعالج. ولو صحب هذا الإعداد تزكية للإيمان والتقوى وتنشئة على الخلق القويم لانعدمت تلك النماذج الشاذة والنادرة والخارجة التى نتسامع بها بين الآن والآن فى كل زمان

ومكان ، والتى تَوَقَّتْ منها المهنة الطبية فجعلت من ركائز دستورها أنّ فحص الطبيب لمريض من الجنس الآخر لابد وأن يكون فى حضور طرف ثالث من المهنة الطبية هو عادة الممرضة أو مثلها .

وآراء الفقهاء المسلمين فى القديم والحديث على هذا الرأى . ولهم منذ مئات السنين أحكام تعد بمقاييس عصرنا غاية الاستنارة وسعةِ الأفق وتفهم روح الشريعة ونصوصها ، جامعين فى ذلك ما بين العاطفة الإسلامية الدافئة والعقل المسلم الرصين . والأدلة كثيرة .. فإن أردنا المثال لا الحصر طالعنا فى الجزء السادس من كتب المغنى لابن قدامة ص ٥٥٨ « ويباح للطبيب النظر إلى ما تدعو إليه الحاجة من بدنها من العورة وغيرها فإنه موضع حاجة ».. ومن اللطيف ما قرأناه فى كتاب الآداب الشرعية لابن مفلح الحنبلى ( الجزء الثانى ص ٤٦٤ ) : « وقال المروذى قلت لأبى عبد الله المرأة يكون بها الكسر فيضع المجبر يده عليها ؟ قال هذه ضرورة ولم ير به بأساً ، قلت لأبى عبد اللّه : مجبر يعمل بخشية فقال : لابد لى من أن أكشفَ صدر المرأة وأضع يدى عليها ؟ قال طلحة يؤجر . فسألت رأى ابن

مضرس قال هذه ضرورة ولم ير به بأساً » . وتورد نفس الصفحة : « فإن مرضت امرأة ولم يوجد من يطبها غير رجل جاز له منها نظر ما تدعو الحاجة إلى نظره منه حتى الفرجين وكذا الرجل مع الرجل . قال ابن حمدان : وإن لم يوجد من يطبّه سوى امرأة فلها نظر ما تدعو الحاجة إلى نظره منه حتى فرجيه . قال القاضى ( يعنى أبا يعلى من فقهاء الحنابلة ) يجوز للطبيب أن ينظر من المرأة إلى العورة عند الحاجة إليها وكذلك يجوز للمرأة والرجل أن ينظر إلى عورة الرجل عند الضرورة » . وفى حاشية ابن عابدين الحنفى جزء ٥ ص ٢٣٧ « وينظر الطبيب إلى موضع مرضها بقدر الضرورة »... ..الخ

على أن فريقاً من الإخوة المسلمين يقفون وقوف القلق على تعبير « الضرورة » أو « إذا لم يوجد من يعالجها غير رجل » .. وما إلى ذلك . ونتمنى لو امتد حبل التفكير الهادىء بنا معاً قبل القطع بالنتائج ..

فهذه التحفظات لا تقتصر على العمل فى التوليد والأمراض النسائية فقط وإنما تشمل العمل الطبى بعامة ..

كذلك ينبغى أن نعلم أن نظر المرأة إلى عورة المرأة ليس مباحاً على إطلاقه ولكنه أيضاً استثناء من القاعدة العامة من أجل الضرورة وهى هنا الضرورة الطبية .. فالأصل أن المرأة المسلمة تنظر من المرأة كالرجل من الرجل ( حاشية ابن عابدين ج ٥ ص ٢٣٧ ) فإن وَلَجَتْ تخصص التوليد والأمراض النسائية فبحكم الاستثناء الذى أفضت إليه ضرورة العلاج فانحسرت عنه القاعدة العامة . ولا جدال ولا خلاف كيفما دار الأمر على وجوب أن يكون فى المجتمع أطباؤه وطبيباته وإن تباينت الآراء من بعد ذلك على توزّع العمل بينهما . ولكن ينبغى العلم أن عملية إعداد الطبيب أو الطبيبة توجب أن يطّلع كل منهما على عورة الجنس الآخر من البداية .. فلن يتكون أطباء من الرجال إذا حذف جسم المرأة كله أو بعضه من مقررات الدراسة .. ولن تتكون طبيبات من النساء إذا حذف جسم الرجل كله أو بعضه من مقررات الدراسة .. فطبيعة الدراسة الطبية تجعل ذلك محالا ، ولا يكون التخصص فى فرع من فروع الطب إلا من بعد الدراسة العامة الشاملة ، فالتخصص يفرض معرفة عامة بالكلّ يتلوها تعمّق فى أحد الأبواب ، وإلا كان المتخصص كالناظر منْ ثقب

المفتاح لا ينظر إلا إلى جزء من صورة لا يدرى ما حوله وما يسبقه وما يتلوه وما يتفاعل معه وما يتشابك فيه ! وأريد بذلك أن أطمئن نفراً من الأبناء والبنات الحريصين على دينهم أول دخولهم كلية الطب وظنهم أنهم يرتكبون معصية بالنظر إلى الجنس الآخر جثة أو مريضاً . وإذا كان إعداد الأطباء والطبيبات واجباً شرعياً فإن مالا يكون الواجب إلا به فهو واجب . ولا إثم هناك ولا معصية .

ونعود للرأى المنادى بقَصْر العمل فى التوليد والأمراض النسائية على النساء .. فنرى أنه كان الأولى بالنداء هو قصر علاج النساء على الطبيبات وقصر علاج الرجال على الأطباء فى كافة فروع الطب من جراحة أو صدرية أو قلبية أو باطنية أو غددية أو جلدية أو مفصلية أو أشعة أو عصبية أو سوى كل ذلك .. وليس فى مجال التوليد والنساء فقط ، لأن العمل فى كل هذه الفروع قد يقتضى معاينة عورة المرأة فى أى موضع من جسمها بغير استبعاد موضع معين ..

فهل إلى ذلك من سبيل ؟

وهل نقصر إباحة الاطلاع على العورات لفترة التلمذة فقط

ثم نوزع العمل بعد ذلك فى كل فروع الطب فالأطباء للرجال والطبيبات للنساء ؟

الواقع أن هذا غير عملى ..

لأن عدد الطبيبات فى أى تخصص طبى وحتى بغير تخصص طبى لن ينهض للقيام بهذا العبء .. عبء علاج النساء والنساء نصف المجتمع . ولا يطمح تخطيط طبى فى أن يكون نصف القوة الطبية فى كل تخصص طبى من النساء .

ونود أن نصحح مفهوماً واسع الانتشار خارج الوسط الطبي.. خاصاً بتخصص التوليد وأمراض النساء ، الذى يظنه الأكثرون هو التخصص الذى تتجه إليه الطبيبة المرأة بحكم أنوثتها .

ولسنا هنا نعنى القبالة العادية أو تدبير أمر الولادات الطبيعية .. فهذا أمر تقوم به القابلات والمولدات من أفراد الهيئة التمريضية سواء فى المستشفيات أو مراكز التوليد وهو أمر معمول به بالفعل من زمان .

وإنما موضع الحاجة إلى الطبيب المختص عندما يكون الأمر

خارج النطاق السّوى أو يتعسر أو يتفاقم أو تعتوره الطوارىء والمضاعفات للوالدة أو للجنين .

وهنا نقول بحق إن العمل فى هذا التخصص هو من أشق الأعمال فى الحقل الطبى . إن لم يكن أشقها على الإطلاق . فهو من أنواع الجراحة التى قد تدعو لاتخاذ أخطر القرارات فى لحظات من الزمان وتنفيذها فى حسم وسرعة وجرأة لا يؤثر فى ذلك نوم ولا يقظة ولا ساعات عمل طوال فى الليل أو النهار . وهو تخصص لا يتهيأ إلا لِذِى العزم الأكيد والجسم الحديد والبديهة النشطة والدقة فى ميزان الأمور والتصرف الفورى الحكيم دون تعجيل أو تأجيل .

وأهل المهنة يعلمون أن هذا الطراز غير وفير لا فى الرجال ولا فى النساء ولعله عن طبيعة النساء أبعد . ولهذا فالنابهات فيه من النساء قليل ، وهن ولا شك يبذلن تضحية غير هينة من راحتهن ورعاية أطفالهن وبيوتهن وأنفسهن وليست الغالبية من الطبيبات على هذا الاستعداد .

ومنذ جربنا أن تمر الطبيبة فى فترة التدريب بعد التخرج على طائفة من التخصصات تقضى بكل منها فترة ، اتضح لنا أن

أغلبية الطبيبات لا يخترن التخصص بعد ذلك لا فى الجراحة ولا فى أمراض النساء والولادة ولكن فيما هو أقل مشقة فى سائر التخصصات وأخف وطأة .

ويقول قائل من بعدُ فلا تُقْحِمُوا الطبيب المختص ولا تستدعوه إلا إن تأزم الموقف وتفاقمت الحالة وأوشكت أن تودى بالمريضة إلى الهلاك .. فهى آنذاك الضرورة الواضحة التى تسمح بها الشريعة ويقرها الدين ..

وهو فى الواقع قول أحسبه يصادف هوى فى نفس الطبيب المختص .. فالطبيب الكبير يُحبُّ أن يُدْعَى إلى الأمر الكبير وإلا أهدر وقته على الغث دون السمين من القضايا .

ولكن كيف تَأَتىً لهذا الطبيب الكبير مقامه ذاك وما توفر له من خبرة ومران ودراية يسوس بها المواقف الصعبة إلا مروراً بما دونها وتدرجاً فى السهل ثم الأصعب ثم الأصعب ؟ وهل يبلغ القمة إلا من مر بالسفح فما فوقه فما فوقه ؟ إن عملية إعداد الطبيب الكبير المرجع لغيره من الأطباء تستدعى أن يبدأ فى بدء حياته بممارسة الأمور السهلة والعادية ثم يرتقى رويداً رويداً فى حصيلته وحنكته وخبرته ومهارته حتى يتسنم الذروة التى نريد .

ولو لم نهيىء ذلك لقضينا على أنفسنا ونسائنا أن نظل عالة على الأجانب عن ديننا فى العلاج ، الذين ليس ضمن مفاهيمهم مفهوم العورة والتقوى والحلال والحرام أو هى عندهم تخالف ما نؤمن به وندين .

ونعود فنقول إنه إن كان إعداد الطبيب المتخصص فى مجتمعاتنا فرض كفاية وواجباً ، فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

وقبل أن نختتم لابد أن نعرض بالذكر لبعض من السيدات اللاتى يجدن حرجاً فى أن يعاينهن رجل ، فالواجب يقضى بالحرص على قدر المستطاع على أن تفحصهن طبيبة ، لا بداعى الحل والحرمة ولكن بداعى الرفق الذى هو من حق المريض على الطبيب ، وبداعى مراعاة المشاعر واحترامها ، وبداعى أننا أُمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم .. فإن لم يتيسر إجابة رغبتها فى الحال ضربنا لها موعداً تتيسر فيه ، وإن كان الأمر لا يحتمل التأجيل بينها لها وجه الضرورة وطمأناها إلى أنها غير عاصية إن عالجها طبيب .

وبعد .. فهذه كلمات توسمنا مقدار الحاجة إلى الإفضاء بها من واقع أحاديث مع شبابنا وطلابنا وبعض إخوتنا المسلمين وفقهم الله . أردنا بها أن نعرِّف برأى الإسلام فى هذا الموضوع ، وأن نضع عنهم وزراً لا يضعه الإسلام على ظهورهم ، وإصراً لم يحمله الله عليهم ، وأن نحفظ عليهم رقعة الحلال فلا تنكمش ، وأن نطمئنهم إلى مباح تبقى العمدة فيه على النية الحسنة ومراقبة الله وخشيته وبين الأطباء من آتاهم الله ذلك وزيادة والحمد لله .. فضلا من الله ونعمة ، والله عليم حكيم .

[ تم بحمد الله ]

رقم الإيداع ٥٩٠٢ لسنة ١٩٨٨